

كتاب الهلال



# المتاهرة

مسلسلة  
ثقافية  
شهرية

تأليف: ديزموند ستوارت • ترجمة: يحيى حقي • مقدمة: د. جمال حمدان



# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : كامل زهيري

٢١٦ - ذو الحجة ١٣٨٨ - مارس ١٩٦٩

No. 216 - Mars 1969

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب  
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (٢١ عددًا) في الجمهورية  
العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى  
١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥٥٠ دولارات  
امريكية او ٤٠ شلن - والقيمة تسدد مقدما لقسم  
الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة  
والسودان بحواله بريدية . فى الخارج بتحويل او  
٢٠٤ م) - والاسعار  
اف رسوم البريد  
عار المحددة ..

إهداء ٢٠٠٥

إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

# كتاب الطلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة  
الفنان حلمي التوني

# الفتاهرة



تأليف  
ديزموند ستيفارت  
ترجمة  
يحيى حقي  
مقدمة  
د. جمال حمدان



دار الفلّال



## .. هذا الكتاب ..

لم يستطع معول التنظيم الفشوم ، ولا اكديس العمارات الشاهقة المسلحة بالأسمنت ، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالاسفلت ، ولا احياء حجارة الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان ، شقا الى القلب كالطعنة النجلاء أو لفا على الجوانب ، غلافا فوق غلاف ، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس يد عبياء متلهفة على التقليد - لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الاصيل وجلالها المكنون - هبة لها من حضارة الشرق ، ونفحة من سماته ، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديته . ان كنت تأنس لجمالها حين يطوف به خيالك اذ هو بالأمس في قصره ، في عز مجده فانك أشد أنسا به وانت لزوره اليوم فتراه منكمشا منزويا في صومعته . بقى من الثمرة سر الحياة والديمومة في نواتها الصلبة ، هيهات أن تتحطم ، انها صلابة الدفاع المستميت في آخر خندق ، وهذا التجميل بالستر اذ الود فاتر ومنسى أشد نبلا من أريجيتها واغداقها اذ هي مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة ..

لم تستطع الاسطح المتعالية يوما بعد يوم أن تحجب ماذنها العديدة ، باقية هي ناجية بشممها وشموخها ، ولا الضجة الهائلة التي اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه

الماذن ، يخشع لها القلب وتطرب الاذن عند مولد كل  
فجر ..

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ ، آية في فن العمارة ،  
في ذروة الصدق ، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال ،  
تحكى فى صمت قصة آلاف من الفنانين بناء الحضارة  
عملوا فى ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف أسماءهم  
أحد ، ولا يذكرهم أحد ، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم ،  
جزاؤهم عند رب لهم عليم ..

واسواق لا تزال متشبهة بإمكانتها ، كان لها جذورا  
ضاربة الى الأعماق ، هيهات أن تنقص أو تدوى ،  
شاخت ولكنها لا تزال متشعبة بأطياف من وسامة شبابها  
وثرينة عرسها . تغير عن يمين ، عن يسار ، من حول كائن  
واحد لا يتغير ، ابن البلد ، بكرمه ومروءته ، بلطفه وظرفه ،  
ببشاشته وخفة دمه ، بنكاته وقفشاته ، بذكائه وحضور  
بديهته ، هو الذى رقق العامية على لسانه وأثراها بأبداع  
مجاز واستعارة ، ساخر وحكيم ، تحسبه لطيبته غرا  
ولكنه « حويط » ، يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة  
من بين عملة كثيرة زائفة ولو براقية ، لا ينطلى عليه الكذب  
والنفاق ودموع التماسيح ..

هذه هي القاهرة ، ان كنت لا تعرفها يا أخى فاعرفها ،  
اذن ستحبها ، ستعشقها ، ستتنضم الى زمرة عشاق لها  
كثيرين ، هاموا بها ولاء والتحاما ، منذ أن ألقى فى نهر  
النيل عقدها ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصروزة  
فى منديل ، عشق بالغريزة ، بالارث ، بالقسمة والنصيب  
والحمد لقدرة لا تعلل تصاريفه ..

لم أعرف عيدا قوميا تمثل لى فيه لقاء موعود مع  
حبيب كالعيد الألفى للقاهرة ، بلدى الذى ولدت فيه ،



ونشأت فى أحيائه العتيقة الشعبية ، تحس أعصابى  
قبل علقى بمقدم العيد ، وددت أن أشارك أهلى فى الاحتفال  
به فاخترت أن أترجم لهم عن الانجليزية كتابا أن صدر  
سنة ١٩٦٥ فهو لا يزال - بقدر علمى - من أحدث الكتب  
التي الفت عن القاهرة . كتبه ديزموند ستياوت الذي  
يتكلم العربية وتعرفه أوساط الصحافة عندنا لأنه عمل  
بها وأقام بيننا طويلا ، وله فى بلده إنتاج أدبى ، متعدد  
متنوع . اخترت كتابه لأنه صغير الحجم ، ملموم ، فصوله  
محددة أجمل تحديد ، موصولة ببراعة ، أرجو أن تلاحظ  
كيف كان أول تناوله للقاهرة من ناحية طابعها الصحراوى  
لأنها - بل الوادى كله - فى حوض الصحراء ، ثم من  
ناحية طابعها النهري ، ثم يمضى يسائر التاريخ فى فصول  
يأخذ فيها اللاحق من السابق . .

وأحب أن أنبهك أن هذا الكتاب هو كلام أجنبى ، مقصود  
به خدمة زائر أجنبى يقدم الى بلادنا لأول مرة ، فالحديث  
له لا للمصريين . لا تضق ذرعا اذن بمعلومات وردت به  
هى غير مجهولة لك ، بل لعلك تجد متعة فى مقارنة دلالتها  
عندك بدلالاتها عند المؤلف ، لذلك فانه يرسم لهذا الزائر  
طريقه الى المساجد والكنائس ، ويقيس له زمن المشوار  
مشيا بالساعة والدقيقة ، ويحدد له اسعار فنجان القهوة  
وقطار حلوان ودخول المتاحف ، ولكنه يقتصد فى هذه  
الارشادات العملية ويتخذ طريقا وسطا ، فلا يتسم بهذا  
الجفاف العلمى الذى تجده فى مؤلفات فقهاء الآثار ،  
ووقوفهم الطويل أمام الأحجار والعقود والمقرنصات ،  
( وضع الأجانب مصطلحات العمارة ونحن لا نزال فى خيرة  
لا نستقر على مصطلح نستخدمه فى التأليف أو الترجمة )  
ولا يتسم الكتاب كذلك بالجفاف التجارى الذى تجده فى

كتب دلالة السياح ، ولم يقصد المؤلف أن يقدم لنا في صورة مختصرة معلومات كثيرة استقها من المراجع ، وإنما أراد أن يحكى بأسلوب أدبي للزائر الأجنبي ( وقد افترض فيه هيامه بالفن وجوانب الطرافة في الحى والجماد ) ما أحس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجب أحياء القاهرة يعرض أحاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية التي استمدتها من مراجعها الوثيقة ، انه رأى الألوان وأطياف الألوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت ، واستقرأ الوجوه والأسطح والجدران وأكوام القمامة ، كم كنت أود أن يكتب كل أديب كبير عندنا عن القاهرة ويصف لنا وقعها على نفسه كما فعل هذا الأجنبي . انك لا تملك الا أن تحس انه يحب القاهرة حبا كبيرا ، ولكن بقيت مع ذلك فى نفسى من الكتاب أشياء تملكت لها ، أقيمتها ليكون النص العربى مطابقا للنص الانجليزى تمام المطابقة ، وكان من الواجب أن لا تترك بغير تعليق يتولاه من هو أعلم منى بالتاريخ ، ودعنى اعترف لك اننى ما تناولت كتابا لأجنبى يصف فيه بلدى فأراه يلقي عليه نظرة جديدة تعتمد على ثقافة شاملة وتحاول النفوذ بالحس المرهف الى السر من تحت السطح الا تملكنى شيء من الحسرة والغيرة ، قد يصدنى أحيانا عن متابعة الكتاب لئلا احكم بنفسى على خيائى وقصور بصرى ، وهذه هى حيلة العاجز المعتذر مع ذلك بأن نيته فى النهوض صادقة ، والنية بلا عمل كالبندقية بلا رصاصة ، فأبناء بلدى هم عندى أولى الناس بفهم بلدى وخدمته ، لن أتخوف - شأنى مع الأجانب - شبهة التجنى عن سوء فهم ، أحيانا عن سوء قصد ، ثم أعود للكتاب وأنا أقول ان الأجنبى أقدر من ابن البلد على الرؤية لانه ليس مثله ضحية الألفة المستنزفة لجدة الانتباه

والعجب ، المفضية الى عناق ثموت فيه اللهفة وان بقى  
الحب ، واشهد ان ديزموند سستيورات ارانى لاول مرة  
اشياء كان يقع عليها بصرى من قبل ولا انتبه لها ..

ونحن الان نحتفل بالعيد الالفى للقاهرة ، الام التى نحلف  
بجمالها وننعم بحضنها . سنقرأ ولا ريب اعمالا بديعة  
تتحدث عن التاريخ والاثار والعمارة والخطط وتراجع  
الاعيان ، ولكن الذى ابحث عنه هو كتاب يتحدث عن  
القاهرة حديث عاشق عن عشيقته ، حديث انسان حى  
عن انسان حى ينفرد بملامح ثابتة وان تقلبت ثيابه . لن  
يخط هذا الكتاب قلم مؤرخ او عالم آثار ، بل قلم اديب  
أبن بلد ، او قل قلم شاعر يكتب بالنثر ، والعجيب اننى  
وجدت ضالتي لا عند اديب او شاعر بل عند صديقى  
الاستاذ عبد الفتاح عيد ، نابغة فن التصوير الفوتوغرافى  
فى بلدنا ، فان لوحاته من القاهرة شعر ونغم ، وحس  
مرهف ، وفيض حب كامن فى اعماق القلب . وكم كنت  
اتمنى أن يصحب الاحتفال بذل جهود كبيرة للتعريف  
بالقاهرة والحض على حبها . اتمنى أن تنظم لنا جولات  
صباحية ايام العطلة مشيا على الاقدام ، بالمجان ، فى  
صحبة عالم آثار لا دليل سياح ، يشرح ويفسر . جهود  
اخرى للمناداة بصيانة الآثار الاسلامية فى ذاتها وفى نوع  
الجيرة من حولها ، واثارة الاهتمام بفن العمارة ، فمن العار  
ان لا تصدر مجلة للعمارة فى القاهرة أم العمارة ، والمطلب  
من هذا كله هو حث المماريين عندنا على الوصول الى  
طراز يلائم طبيعنا وجونا ، ويستمد من تراثنا ، فما أشد  
ابتلاءنا بعمارات مستوردة لا تناسبنا ، نذل بها وتذل هى  
بالقربة عن مواطنها ، لا تنفعنا كما نعت أهلها ، فالشقاء  
مزدوج متبادل ..

يحيى حقي

## مقدمة

### القاهرة الكبرى دراسة في جغرافية المدن بقلم : د . جمال حمدان

إذا عدت المدن العواصم العظمى في العالم ، فالقاهرة واردة بالتأكيد في العشرة الأولى أو العشرة ونيف . وهي المدينة الأولى - المطلقة - في قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى أفاق القارة الأفريقية إلى تخوم الألب ووسط آسيا . بل إن بضعة لا يستهان بها من الدول الأفريقية لتقل سكانا - سكان كل منها أقصد - عن حجم القاهرة كثيرا أو قليلا ، وذلك حتى دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف سكان العواصم الأفريقية الخمسين مجتمعة !

وان حصرت العواصم المخضمة العربية في الدنيا ، فلعل القاهرة ( واسلافها أو بأسلافها ) هي أم المدن جميعا ، وعلى أية حال فقليلة جدا هي المدن التي يمكن - كدمشق - أن تنافسها في هذه الصدارة . وحتى تتمثل هذا البعد الزماني السحيق بشيء من التجسيد الذهني ، يكفي أن نقول أنه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من عواصم غرب أوروبا ، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم الجديد مجتمعة . . .

أما إذا اعتبرنا الوزن الحضاري والنفوذ السياسي والوقع والاشعاع القومي والفكري ، فما من عاصمة فيما نظن لها في دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية

وسيطرة أو توجيه ، بل وإلى حد الإفراط ربما . ولقد يختلف علماء المدن حول السؤال القديم : هل العواصم هى أكبر وخير ما يمثل ويجسم روح بلدها وكيانه وذلك باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره وأقاليمه ، أم هى بطبيعتها العالمية الكوزموبوليتانية بالضرورة وبما تضم من جاليات وأجناس أجنبية وبما تتطلع دائما الى الخارج تؤلف فيما بينها طبقة « كاستية » خاصة من المدن في العالم أشبه ببعضها البعض منها بصميم أقطارها المحلية ؟ مهما اختلف الرد ، فلا خلاف فى حالة القاهرة ، ولا يمكن له أن يقوم ، فها هنا عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيانه حضاريا وماديا ، جغرافيسا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى

هذه اذن هى القاهرة : تاريخ مفعم مجعد أو محفوظ ، كل حجر فيها مشبع بعبق الماضى وعرقه ، وكل شبر منها يحمل بصمات الانسان . انها - كبيت جماعى كبير ، وكمنطقة مبنية لا مثيل لكتلتها فى مصر - عمل فنى من مقياس ضخيم مهندس وساكته هو المصرى ، وهى بهذا أكثر أو أكثر رقة من اللاندسكيپ الحضارى فى مصر « تبشيرا » وحمللا للطابع البشرى ، وبنفس الدرجة أبعدها عن ملامح الطبيعة الخام واللاندسكيپ الطبيعى الغفل للوادی ..

ورغم هذا كله ، فان القاهرة من أسف من أقل العواصم حظا فى دراسات المدن العلمية الحديثة . كثيرة هى لاشك الكتابات الاكاديمية والشعبية المتاحة عن هذه المدينة الخالدة ، ولكن الغالب عليها اما التاريخ عمومًا أو تاريخ العمران أو الآثار خصوصا . وربما أضفنا بعض كتابات « هواة المدن » من الرحالة أو الادباء أو الصحفيين ،

لا سيما منهم الاجانب

اما دراسة المدينة ككل حتى متعضون قوار محدد  
السمات والقسمات ، كمجتمع مركب متلاطم مضطرب  
يضطرب في وعاء جغرافي واضح المعالم بارز التضاريس ،  
اما دراسات علم اجتماع المدن وجغرافية المدن بوجه  
خاص ، اما مورفولوجية القاهرة الكبرى ، تركيبها  
الوظيفي ، ايكولوجيتها البشرية ، نموها السكاني وزحفها  
العمراني وضوابطه ، هيدرولوجية النقل ومشاكله  
الخائفة المختنقة ، الطبوغرافيا الاجتماعية والتسوزيم  
الجغرافي للطبقات والحرف ، اقليم المدينة وحدوده ،  
التخطيط المستقبلي ومؤثراته .. الخ ، اما هذا كله فما  
زال فراغا مقلقا وارضا بكرا ( ولا نقول مجهولة ) منذ  
ظهرت اول وآخر محاولة جادة في هذا الميدان الخضم ،  
ونعنى بها دراسة كليرجيه (١) في الثلاثينات ، والتي دفع  
بها نمو العاصمة المدى الانفجاري الحديث الى زوايا المكتبة  
التاريخية بدرجة او بأخرى

والكتاب الحالي الذي نقدم له بين يدي القارئ نموذج  
شيق وطريف بل وبارع لكتابات المثقفين من الصحفيين  
الرحالة الاجانب هواة المدن الذين يحاولون بدكاء أن  
يستقظروا روح امة وشخصية بلد من خلال عاصمتها  
وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية ، مدعمة  
بقراءة واسعة في التاريخ والتراث قترامى من الفولكلور

---

(١) Marcel Clerget, Le Caire, Etude de Géographie  
Urbaine et d'Histoire Economique, Le Caire, 1934,  
(2 vols.).

الى اللغات ، ومن الدين الى الادب ، ومن الجغرافيا  
والاجتماع الى العمارة والهندسة . . الخ

ولقد يختلف القارئ مع بعض الاحكام والنظرات التي  
اوردها المؤلف كاجنبى عابر ، فهذا امر لا مفر منه وتلك  
عموما نقطة ضعف الكاتب الاجنبى ايا كان ومهما حاول ،  
ولكن من المحقق - بالمقابل - أننا سنلمس لمسا نقطة القوة  
وميزة العين الاجنبية النافذة الثاقبة ترى وتلتقط من  
اللحاحات الشفافة واللففات الدقيقة اللامحة ما قد أخفى  
الالف عن عين صاحب الشأن نفسه حتى غاب عنه او كاد

الكتاب اذن - فى كلمة - قصة رحلة travelogue  
رحلة فى الزمان والمكان ، طولها مدينة وعرضها زيارة .  
ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك ، وممتعة وجذابة الى  
ذلك . انه سياحة بلا دليل ، وتاريخ بلا ارقام ، وجغرافية  
بلا خرائط ، وهندسة وعمارة بلا لوحات ، واجتماع بلا  
نظريات ، وايضا سياسة بلا شعارات : قل باختصار : علم  
وثقافة بلا دموع ، كما يعبر الاوريون

نعم ، بلا دموع . ومن هنا بالدقة تبدأ مهمة هذه  
المقدمة . ففى تصورنا ان مثلها - لا سيما ونحن نحتفل  
بالعيد الالفى للقاهرة - ينبغي ان يوفر الاساس العلمى  
الصلب ، والقاعدة المادية والفيزيكية لهذا البناء المدنى  
الشامخ المعقد والمتعدد الأبعاد . فلعل من المفيد للقاهرى  
ابن العاصمة ، وللمصرى أبى العاصمة ، فضلا عن أخيها  
العربى ، ان يكون لنفسه خريطة ذهنية مبسطة تلم شتات  
مدينته المترامية وأطرافها فى صورة اختزالية متكاملة دالة  
وهادفة ، تؤكد الخطوط العريضة فى هيكلها وتكمل خبرته  
اليومية ومعاشته الجارية لحياتها وحياتها

لتكن هذه ، اذن وبعبارة أخرى ، مقدمة مبسطة فى

جغرافية المدينة ، تحليل الاساس الطبيعى الذى تقوم عليه العاصمة موقعا وموضعا ، وتتبع نموها العمرانى فى ظاهرها وظهيرها ، وكذلك خططها الهندسية وكتلتها المبنية ، ثم تحدد وظائفها وتوزع طبقاتها الاجتماعية وأقاليمها التركيبية ، وقد تعالج أهم مشاكلها واختناقاتها . وكثير من هذه - بالفعل - جوانب عرض لها الكتاب بصورة أو بأخرى

أما عن الترجمة والتعريب فلسنا بحاجة - احسب - الى الوقوف عندها طويلا أو قصيرا ، وهى من قلم واحد من سادة الادب والفكر وعمالقته المعدودين فى مصر ، ذى سلطان عظيم على لغتى الاصل والنقل معا بل وعلى الثقافتين العربية والفريية على حد سواء وعلى أرفع المستويات . ثم ان امر هذه الترجمة متروك للقارئ نفسه ، فهى مكافاته الحقيقية - كما اثق - فى هذه الرحلة الشائقة . وحسبى هنا ان اشهد مخلصا اننى قطعت شوطا كبيرا فى مطالعة النص وأنا أظنه تأليفا ودون أن افطن الى أنه عمل مترجم ، وهذه ولا شك أكبر شهادة لاي ترجمة ومترجم . فانت هنا تشعر أنك تقرأ لصاحب « القنديل » ، بأسلوبه ، بجمله التأثيرية ووقفاته ولزماته ، بكل خصائصه ونكهته ، كل أولئك فى امانة وولاء للنص الاجنبى هما اول ما يطلب فى ترجمة . وهناك كما يقال من اذا ألفوا ترجموا ، واذا ترجموا ألفوا ، ولكنك هنا أبعد ما تكون عن هذا . على العكس تماما ، ستجد التزاما أميناً بالنص حريصا على روح المؤلف ، ولكن دون أن ترتطم قط بتلك التراكمات الفجة أو التشويهات والاهتزازات التى تسقط فيها عبودية الحرفية



## الموقع والموضع

والموقع هو ذلك الاطار الجغرافى الكبير الذى تحدده الملائق المكانية العريضة والقيم الاقليمية النسبية التى تتعدى كثيرا جدا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل الى ابعاد قارية برمتها . لذا فهو فكرة متغيرة على العصور ، وبالتالي فقليل من المواقع ما يعد خالداً فى التاريخ . اما الموضع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التى تقوم عليها الكتلة البنينة مباشرة ، وهو لا يتغير الا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها الى رقعة اخرى

والقاهرة تحتل موقعا فريدا فى مصر وخارج مصر . ففى اطار التقاء الدلتا بالصعيد ، فى عقدة الوادى وصوته ، موقع حتمى خالده ظل العواصم تدور فيه ، قد تنتقل من موضع الى موضع ، ولكنها لا تخرج عنه الا فى فترات عابرة وربما قيل شاذة - فى التاريخ القومى ، مثله فى هذا مثل خاصة الافريدين فى العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل الى قطيسفون الى بغداد ، ومثل تونس على راس البلد وعلى خاصة البحر المتوسط حيث تناسلت أو تناسخت قرطاجنه وتونس وتونس

فموقع القاهرة اذن هو خاصة مصر ، منجمع الوادى والفرعين ، وملتقى الصحراوين ، كانما القطر كله على ميعاد فيه . ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسى . فمن منق الفرعونية ( فى منطقة البدرشين حاليا ) الى أون او هليوبوليس ( عين شمس ومصر الجديدة الآن ) الى بابلون ( مصر القديمة ) الى الفسطاط العربية ثم الى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية - كل اولئك حلقات متباينة فى سلسلة جغرافية او نسل اقليمى واحد اساسا

وإذا كانت العاصمة قد عرفت أطارا اقليميا مختلفا ومتطوحا أكثر من مرة ، كطيبة ( الأقصر ) في الجنوب الاقصى ، وأفارس قاعدة الهكسوس في شرق الدلتا ، والاسكندرية البطلمية الرومانية ، فانما كانت الاولى في المرحلة التكوينية للدولة المصرية ، وكانت الثانية انحرافة غزو اجنبي بحث ، بينما انت الثالثة انحرافة استعمارية لامبراطورية بحرية على الجانب الاخر من المتوسط ، وظلت حينما اشبه بجزيرة غريبة من الارخبيل اليوناني نقلت والصقت بالساحل المصرى سياسيا وبشريا

والانتقال من منف الى الفسطاط يمثل نقطة انتقال هامة في التوجيه الطبعى والسياسى : فهو انتقال من الضفة الغربية الى الشرقية ، ويشير الى أن منف ، التى كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلما كانت أسهل اتصالا بالصعيد ( حيث المعمور الزراعى يقع فى سواده الاعظم على ضفته الغربية ) ، كانت عموما أدنى الى التوجيه المصرى المحلى . .

أما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقا مع توجيه الفتح العربى الجديد ، الذى هو نحو الخارج أولا وبرى الطابع ثانيا ، وذلك بعد أن أصر الخليفة عمر على قائده عمرو « ألا يجعل بينه وبين المسلمين ماء » ، فاختار موضع الفسطاط بدلا من الاسكندرية ومن الجيزة كما كان البعض قد اقترح عليه . ومن هنا أصبحت الفسطاط فى موضع أشبه بالكوفة والبصرة فى العراق ، كلها ترسم مروحة حول رأس الجزيرة العربية ، وكل منها يقع على نهاية واد صحراوى يخرج منها أو قربها وينتهى الى ماء نهر كبير ولكن أساسا دون أن تعبره

من هناك أيضا بدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر

أمام الفسطاط - لاحظ اشتقاق الاسم من الاجتياز والمجاز - أى همزة الوصل بين العاصمة والصعيد ، وورثت بذلك ظل منف - الظل فقط - ولذا ظلت دائما وحتى بدايات قرننا هذا حلة صغيرة مجمدة . وفى هذا الدور كانت جزيرة الروضة اشبه بنصف جسر طبعى بين الجزيرة والفسطاط ، يكمله عادة نصف آخر معلق من السفن الثابتة . .

ومن الضروري هنا ان نذكر ان موضع الفسطاط فيما هو اليوم نهاية مجمع القاهرة المدنى جنوبا انما يمثل ما كان فى حينه اضيق - واسهل - عبور للنهر بين ضفتيه . فى عصر كان النهر يمثل عقبة مواصلات لا يستهان بها . ذلك ان شاطئ النيل الشرقى لم يكن يتبع حده الحالى ، بل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو الشمال الشرقى الى قلب القاهرة الحالى فى الشمال ، بحيث كان الثلث أو الثلثات العربى من الرقعة الحالية تقريبا ماء وجزءا من مجرى النيل

ومعنى هذا أيضا ان الضفة الشرقية لم تكن يمثل منها يمثل إضافة لليابس تكونت بالتدريج عبر القرون اتساعها الحالى ، بل كانت اقل مساحة ، والثلث الغربى نتيجة لارسابات النهر الطمئية ، بينما أخذ النهر نفسه يتراجع نحو الغرب بانتظام ، وهذه هى الحركة التاريخية التى تعرف بهجرة مجرى النيل نحو الغرب . اما تلك الارض التى انحسر عنها النهر فلم تكن ناضجة فيزوغرافيا على الفور ، وانما ظلت مواطء رطبة تملؤها البحيرات والخلجان والمضاحل ولا تصلح للسكنى والتعمير الا بعد قرون من الارساب والنضج والصلابة . فمثلا لم تظهر منطقة الازبكية كارض صلبة الا منذ الفاطمية ، ومنطقة

## باب اللوق الا منذ الايوبية

وعند هذا الحد ، يمكننا ان تكون تصورا عريضا لموضع منطقة القاهرة عامة . فالضفة الشرقية تحدها سلاسل تلال تقترب من النهر في الجنوب وتنفرج بعيدا عنه كلما اتجهنا شمالا هي جبل المقطم الذي ينتهى في الشمال بالجبل الاحمر قرب العباسية . وحواف هذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ متر في الجنوب ، ٨٠ مترا في الشمال . وتخرج من السلسلة عدة بروجات ناتئة نحو الغرب كتلول ثانوية هي من الجنوب الى الشمال تلؤل عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة

فاذا عرفنا ان شاطئ النيل هنا يقع عموما على منسوب نحو ٢٠ مترا ، أدركنا ان الضفة الشرقية « التي تتسع كالمروحة شمالا وتضيق جنوبا ، ينحدر سطحها كلما اتجهنا من الصحراء الى النهر ، اى ان القطاع الشرقى منها مرتفع والغربى منخفض ( كلمة بولاق مثلا اصلها بلاق وتعنى لغة « الارض المنخفضة ) ، يمثل ما ان الشرقى اقدم جدا في تكونه بينما الغربى أحدث ويزداد حداثة كلما اقتربنا من النهر

وعلى العكس من هذا الضفة الغربية ، فليس ثمة حائط تلى « بل تمتد الارض الزراعية حتى هامش الصحراء ، والارض تنحدر لا نحو النهر بل نحو الصحراء ، ولكنه انحدار لطيف جدا لا يقدر الا بالبوصات حيث يصل في الضفة الشرقية الى عشرات الامتار ، الا انه مع ذلك واضح للعيان كما يمكن للناظر ان يرى من فوق كوبرى الزمالك. تجاه ميت عقبة

وترتبا على ذلك كله ، فان ارض الضفة الغربية سهلة منبسطة بغامة وكلها كانت ارضا زراعية ، بينما

الشرقية منحدره تصلها نهايات الودية الصحراوية والتلية التي تعرف السيول الشتوية المفاجئة والتي يعرفها اكثر سكان الاحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين تتحول شوارعهم المائلة الى خنادق مائية مؤقتة . وبينما تمتد شوارع الضفة الغربية ( باستثناء طريق الهرم ) كطرق مسطحة موحدة المستوى ، ينفرد القطاع الشرقي من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول الى درج حقيقى يذكركنا بشوارع المدن الجبلية فى أوربا وبخاصة حوض البحر المتوسط

أخيرا وعموما ، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة اذا وضعت فى الميزان ؟ ثمة مزايا لاشك واضحة . فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتل ، وهى مفتوحة من الشمال فقط . ثم ان وجود التلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر ، مثلما يوفر لها النهر خامة الطوب . وارتفاع القطاع الشرقي يعوض عن البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحى وحركته النشطة المنشطة ، فى حين يتمتع القطاع الغربى بجبهة مائية منعشة ومرطبة . وأخيرا فان كثرة الجزر كثرة غير عادية فى المنطقة - كنتيجة لتغير مستوى الارساب فجأة مع الانتقال من الوادى الضيق الى الدلتا الواسعة - هذه الكثرة توفر قواعد هامة لعبور النهر ونمو المدينة

### نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

فى هذا الاطار الطبيعى الملأ اذن نستطيع ان نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربى . حين نشأت الفسطاط فى أقصى الجنوب ، قرب النهر والتل معا ، فانما كانت مدينة حربية أساسا ، تنشأ موضع حماية معلقا على التل ومحصنا بالطبيعة . فكانت فى النتيجة مدينته

اكروبوليس ، إلى مدينة قمة تل . ( ومن الطريف ، وهو بالتأكيد أكثر من صدفة ، أن ديزموند ستيوارت مؤلف هذا الكتاب يذهب إلى حد تشبيه جامع ابن طولون على جبله بالبارثينون على الاكروبول في أثينا ! ) وحين بنيت العسكر إلى الشمال الشرقى منها ، ثم القطائع على جبل يشكر في نفس الاتجاه ، وأخيرا القاهرة المعزية التى بدأت كمدينة ملكية محرمة ، فإنها لم تغير تلك الصفة الاكروبولية العسكرية أساسا ، فكانت جميعها تلتزم السفوح التلية العالية في الشرق ، وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبة . وكل ما حدث أنها كانت تزحف من موضع جنوبى إلى موضع أكثر شمالية

ومن الطريف ، ما دمننا قد تحدثنا عن المدينة المسورة وسور المدينة ، أن نلاحظ أولا أن مصر في هذا الصدد شذوذ عالمى نادر ، وثانيا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر في مصر نفسها . . ففى العصور الوسطى وعهد الاقطاع ، كانت المدينة المسورة هى القاعدة العالمية طلبا للحماية من الاخطار الخارجية والصراعات الاقطاعية الداخلية . ولكن حالات ثلاث فقط في العالم لم تكد تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الاقطاعى منذ وقت مبكر : تلك هى بريطانيا واليابان ومصر ،

وكلها جزر حقيقة أو مجازا على ضلوع قارة يفصلها عنها بحر الماء أو بحر الرمل . لقد كانت الصحراء - كما يعبر لويس مفورد - هى السور الطبيعى لمصر . ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تماما . فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجى دائما والصراع الداخلى كذلك ، فكان السور ضرورة استراتيجية منذ البداية وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة ، وذلك

حين لم تعرف المدن الاقليمية المصرية السور أو الحائط  
عدا بعض الموانى الثغور

هذا عن نمو المدينة فى حوض التلال . وفى المراحل  
اللاحقة فقط بدأ يضاف الى التوسع نحو الشمال ، توسع  
فى اتجاه جديد نحو الغرب . فمع نمو الارض الطميية  
ونضجها الفيزيوجرافى على حساب النهر المتراجع غربا ،  
بدأ الاستثمار الزراعى ثم البنائى العمرانى يزحف غربا .  
لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتسورات العالية الى  
الكنتسورات المنخفضة بالتدرج . وبعد أن كانت تتشبث

بضلوع التل ورأسه وتخشى الاقتراب من النهر حيث خطر  
الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه *river-shy*  
أخذت تتحول من مدينة آكروبوليس معلقة الى مدينة  
نهريّة شاطئية مستوية . لقد تحررت المدينة من عقال  
الجبل واسار السور معا وفى نفس الوقت

وفى المحصلة ، فلقد أخذت رقعة العمران والمنطقة  
المبنية تنمو فى اتجاهين لا فى اتجاه واحد ، شمالا  
وغربا ، أو قل على محور شمالى غربى عموما . وتلك هى  
الحركة التاريخية الاساسية والمفتاح فى نمو القاهرة ،  
وهى حركة مطردة وإيقاع ثابت ، مهما توقفت المدينة أو  
انتكست فى مراحل الجمود أو الانكماش

وحتى أيام الحملة الفرنسية ومحمد على كان خط  
الحسينية - باب الشعرية - بولاق يمثل أقصى حدود  
امتداد المدينة شمالا ، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن كل  
ما الى الجنوب كان عمرانا كاملا وسكنى متصلة ، بل كانت  
هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقة المبنية ، ودون أن  
يعنى كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف الى الشمال  
ولقد كان محمد على هو الذى اخترق ذلك الحد وتعداه

شمالا ، نحو شبرا ، كما كان عباس هو الذى بدأ العباسية  
عبر الحسينية . ومع ذلك فقد كان محمد على نفسه هو الذى  
بدأ الاتجاه الى جاردن سييتى لتكون سكنا راقيا لعائلاته ،  
بينما أن حى الاسماعيلية لم يبدأ الا أيام اسماعيل  
والتوفيقية أيام توفيق

وبالمثل فان النمو الاساسى فى نطاق مثل الفجالة -  
الظاهر - غمرة - السكاكينى ، أى جنوب خط المترو  
ومحطة مصر ، لم يتم حقيقة الا بعد ١٩٠٠ . وأحدث من  
ذلك كله بانطبع نمو الشمال الشرقى ابتداء من الدمرداش  
ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ومنشية البكرى حيث  
يتفرع الى شعبتين : الى الزيتون فالحلمية فالمطرية فعين  
شمس شمالا ، وإلى مصر الجديدة جنوبا . وهذا يصدق  
أيضا على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج الى الساحل  
وشبرا ( بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد )

ونفس الشيء يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجزيرة  
مدينة متواضعة الى بداية القرن الحالى ، وظلت تنمو شمالا  
ببطء كشریطه يزناد سمكا وعمقا ، الى أن دخلت فى  
موجتها المدية مع وبعد الحرب الاخيرة حتى وصلت عبر  
الدقى والعجوزة الى امبابة فى عروض تناظر عروض حى  
الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد . وبعد أن كان  
عمران الجزيرة يقع دائما « جنوب » القاهرة ، أصبح  
يقع « غربها » نسا . وهنا نلاحظ ان نمو الضفة الغربية  
باستثناء بندر الجزيرة هو نمو طارئ حديث جدا اذا  
قورن بالضفة الشرقية عموما

وهنا لا تتأكد لنا حقيقة واحدة وهى أن النمو كله -  
على الضفتين - مندفع نحو الشمال ، وانما تتأكد كذلك  
حقيقة أخرى لا تقل مغزى وخطرا وهى أن النمو متوقف



تماما الى درجة الشلل فى الجنوب ، وفى الضفتين أيضا على السواء . فلم تتعد مصر القديمة حدودها المزمنة قرب أثر النبی ، وكذلك الجيزة القديمة ( البندر ) . واذا كانت المعادى وحلوان على الضفة الشرقية تمثلان نموًا حديثًا وعصريًا ، حلوان منذ اسماعيل كمدينة استشفاء ، والمعادى منذ توسعت وتوطدت جالية الاستعمار البريطانى ، فانها تمثل ضواحي منفصلة عن جسم المدينة ولا تنقض القاعدة بقدر ما تؤكدھا . وقل الشئ نفسه عن نمو منطقة الهرم حديثا ، فهي اقرب الى النمو الشريطى الخطى على اطراف المدن ribbon development

والخلاصة أن الحدود الجنوبية لجسم القاهرة تمثل الثوابت الاستاتيكية Constants فى حركة المدينة ، حيث تمثل الحدود الشمالية العوامل المتغيرة النامية والدينامية variables وان فى مجرد الفرق فى التسمية بين مصر القديمة فى أقصى الجنوب ومصر الجديدة فى أقصى الشمال لتلخيصا بليغا لكل تاريخ وحركة النمو داخل هذا المجمع المدنى الحافل

على أنه ليس يكفى أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلى وحده من اختناقه فى الجنوب وانفساحه السهل فى الشمال . فلا شك أيضا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وانتاج ، وانفتاحها بما يقع خلفها من موانئ واتصالات خارجية تجارية ، تمثل لا شك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعيتها بالخدمات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصريف الخارجى . بل قد يمكن أن يقال أن نمو القاهرة شمالا فى لسانيه الاساسيين شمالا وشمالا شرقا هو انعكاس بعيد فى نهاية المطاف لجاذبية الاسكندرية والسويس على الترتيب ..

وإذا كان التناقض في قوة النمو واضحاً ضارخ  
 الوضوح ما بين الشمال والجنوب ، فهو على الأقل حقيقة  
 مؤكدة ما بين الشرق والغرب أيضاً . ففي الشرق حائط  
 المقطم يقف حائلاً منذ العصور الوسطى يخنق كل  
 إمكانيات النمو ، حتى في الوقت الحالي لا يمثل مشروع  
 مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية . أما غرباً فإن  
 المدينة استعمرت النهر نفسه - أعني جزيرتي الجزيرة  
 والروضة - ثم عبرته لتجعل من الضفة الغربية شقيقة  
 صغرى للشرقية تناظرها طولاً وإن دقت عرضاً ، ولتجعل  
 من المجمع المدني كله مدينة صفتين تمتطى النهر كما يقال  
 à cheval

ومن المحتمل في المستقبل أن يرجع معدل النمو في  
 الضفة الغربية معدله في الضفة الشرقية نسبياً ، لأن  
 الأولى هي جبهة ريادة العاصمة الآن وطاقة أو كوة رئيسية  
 لتمدها . ويمكن أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى فنقول  
 إن دفعة النمو إذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالي  
 فقد تتحول في بضعة عقود إلى المحور الغربي . وقد وصل  
 عمق الضفة الغربية اليوم إلى بولاق الدكرور في الجنوب  
 وميت عقبة في الشمال ، وربما واصل نموه إلى الخط  
 الشرياني للسكة الحديدية بين الوجهين

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة  
 إذ تزحف شمالاً في موجتها المديّة العاتية ، وبسرعة  
 العاصفة في العقود الأخيرة خاصة ، مع ثباتها المطلق أو  
 شبه المطلق في الجنوب ، فهي إنما تنتقل بالتدرج مبتعدة  
 عن الصعيد وملتحمة بالدلتا . إن الأصل في القاهرة -  
 عاصمة - أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية  
 وكضابط إيقاع بين أجزاء الوطن وأقاليمه ، تنتمي إلى  
 الدلتا بقدر ما تنتمي إلى الصعيد . ولكن الواقع المحقق

الان أنها أدخل في فلك الدلتا وأشد التصاقا بها وزحفا  
اليها ..

ذلك وكأنما هي تزحف تدريجيا مع رأس الدلتا ( التي  
كانت ازاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية ) والتي  
تزحف شمالا باستمرار . أو كأنما هي تزحف مع مصر  
الحديثة عموما ، حيث يقتصر المعمور في أقصى جنوب  
الصعيد ( منذ خزان أسوان ولكن بالاخص مع السد  
العالي ) ، ويتمدد في أقصى شمال الدلتا ( مع استصلاح  
البرارى الذى سيصل بالارض الزراعية قريبا الى سيف  
البحر ) . أو - أخيرا - كأنما هي ترمز الى تناقص وزن  
الصعيد النسبى في اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس الى  
الدلتا ( الصعيد الان لا يقدم الا ٣٨٪ من عائد الزراعة  
المصرية ) ..

وهذا ما يقودنا الى وجه شبه اخر فى الشكل بين نمو  
القاهرة الكبرى وامتداد الارض السوداء فى مصر . اذا أنت  
نظرت الى خريطة القاهرة فلن تخطىء بالتأكيد شكلها  
الكاسى الخاص ، فهي أولا وأساسا مدينة طويلة أكثر منها  
عرضية ، فبينما يصل امتدادها على المحور الطولى الى نحو  
١٣ كم ، لا تزيد فى أقصى عرض لها عن ٧ كم ، وتقل عن  
ذلك كثيرا فى المتوسط وقد تصل الى حد الاختناق فى  
أقصى الجنوب . وبينما يأخذ النيل محورا شماليا جنوبيا  
بعامة ، ينفرج الخط الواصل بين مصر القديمة ومصر  
الجديدة الى أقصى حد ممكن . ويلاحظ أن جبهة الزحف  
شمالا لا تمثل خطا واحدا منتظما ، بل يتقعر فى وسطه  
لانه يتقلل أساسا فى محورين هما كتلة مصر الجديدة -  
عين شمس فى الشمال الشرقى وكتلة شبرا - روض  
الفرج فى الشمال ، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحذاء

النيل ، وبين هذين اللسانين برزخ أو خليج عريض من الارض الزراعية

الشكل اذن مروحي بوضوح ، تكمن خلفه ضوابط الموضوع وتضاريسه الاولى ، سواء أخذنا الضفة الشرقية على حدة أو اذا أضفنا اليها الغربية . وهذه اذن مروحة منشورة مفتوحة ، يدها في الجنوب . وهذا يذكرنا على الفور - وان يكن على تصغير شديد - بشكل الدلتا نفسها . وحتى لسانا النمو الشماليان السابق ذكرهما يكملان التشبيه بفرعى دمياط ورشيد ! بل اننا اذا أضفنا الديل المتور من النمو المتقطع على استحياء في الجنوب عبر المعادى وحلوان كيد قصيرة لمروحة العاصمة ، لاقترب الشكل جميعا من هيئة مصر عموما حيث يرسم الصعيد يدا طويلة جدا ، ولكنها ليست قوية جدا ، لمروحة الدلتا . ان عاصمتنا لا تلخص كيان مصر البشرى فحسب ، وانما تختزل شكلها الجغرافى أيضا في بقعة أو في كبسولة ..

ماذا اذن عن توسع ونمو القاهرة الرأسى ، بعد ذلك النمو الأفقى الطاغى ؟ معه جنبا الى جنب تقدم بايقاع متناغم . فتاريخ المدينة لم يكن تمديدا للاطراف فحسب ، بل وتكشيفا للداخل أيضا . ولقد أتى على القاهرة حين من الدهر كانت تتخلل منطقتها المبنية فجوات وفراغات ضخمة من الخراب أو الخواء ، وحتى أوائل القرن الماضى كان جسم المدينة مبعثرا مخلخلا غير ملموم ، ولكنه أخذ يلتئم بالتدريج . وبينما كانت الاطراف تنمو كفيللات مبعثرة وسط الحقول ، كانت الفيللات فى الوسط تتحول الى عمارات ، والعمارات تتناطح وتتلاحم وتتسابق الى أعلى كالاشجار فى الغابة تتصارع من أجل الوصول الى الشمس . وبين هذا وذاك جميعا توشك المدينة أن تغص

وتختنق ولا تكاد تجد رئة خضراء أو مساحة مكشوفة .  
والناظر الى خريطة المنطقة المبنية اليوم في القاهرة قد  
يحسب خطأ أن بها فراغات غير مستغلة كذلك التسلول  
المتقدمة في عين الصيرة وزينهم وقطع المرأة في شرق  
المدينة . ولكن الحقيقة أن هذه حدود المنطقة المبنية  
هناك ، وإنما تفصل بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات ،  
أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لا انقطاع لها

وفي ختام هذا الحديث عن النمو ، لا بد لنا من وقفة  
تجيب على سؤال ملح : ما الذي أطلق المدينة من عقالها ،  
خاصة منذ القرن الماضي ، كمارد خرج من القمم ؟ لقد  
ظلت المدينة الوسيطة تحتل رقعة متواضعة محدودة في  
شرق المنطقة ، ولم تخرج من قوقعتها التاريخية  
والجغرافية الا في اواخر العصور الوسطى — وعلى استحياء  
ذلك . ثم مع القرن الماضي فقط تمددت تمدا جديدا تماما  
صوب النهر ، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد في العقود  
الاولى من هذا القرن ، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية  
وحدها انفجرت في موجة مدية حقيقية هي منذ الثورة  
أسرع وأعتى منها في أى وقت مضى . ونحن نستطيع أن  
نصنف هذه الفترات في تاريخ حياة المدينة الى مراحل  
ثلاث أساسية : الاولى هي المرحلة النووية ، والثانية هي  
التكوينية ، والاخيرة هي الانفجارية

ولعل رقعة القاهرة قد نمت في القرن السابق للحرب  
الثانية أى في المرحلة التكوينية أكثر مما نمت طوال الالف  
عام منذ نشأتها العربية أى في المرحلة النووية ، بينما قد  
يزيد نموها بسهولة في مرحلتها الانفجارية في ربع القرن  
الاخير عنه طوال القرن الاسبق عليه . لقد خرجت القاهرة  
عن وصاية الجبل الابوية ، وانساحت من المقطم الى الهرم ،

ومن الصحراء الى الصحراء ، ومن حلوان الى شبرا الخيمة ،  
ويعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسى هى سور  
المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينة بلا  
حدود . ومن السهل أن نتتبع انعكاس هذا كله رقميا  
فى تعداد السكان ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن المدينة  
التي بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث  
مليون ، قد تعدت الآن الخمسة ملايين

مرة أخرى : لماذا ، وما هو الزناد الذى أطلق هذا النمو  
المريد ؟ ثمة على الترتيب عاملان ضابطان أو محركان ،  
لا يكفى أى منهما وحده تفسيرا الا لمرحلة محددة .  
الاول هو الموضع والثانى هو المواصلات . فمن السهل أن  
نرى أن النمو فى المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع  
تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدريج . ولكن  
لا شيء يفسر المرحلة التكوينية ، فضلا بالتاكيد عن  
الانفجارية من بعدها ، الا ثورة المواصلات الحديثة . فحتى  
محمد على ، كانت الدواب هى وسيلة النقل الاساسية  
داخل المدينة ، والمركب الشراعى وسيلته خارجها . كان  
نفس الحركة البشرية قصيرا للغاية ، ومعه كان توسع  
المدينة قاصرا بالضرورة . ثم بدأت سلسلة تاريخية : من  
الدواب الى عربات الخيل الى خطوط « سوارس » المنتظمة  
الى الترام ثم أخيرا السيارة الخاصة والعامة . وحدود  
القاهرة العمرانية فى أى لحظة خلال هذه المرحلة هى  
وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقه : هذا النمو ،  
هل هو صحى سليم تماما ؟ أيسير فى انسب خطوطه  
واتجاهاته الاكثر ترشيدا ؟ لن نقف هنا عند قضية  
تضخم العاصمة فى جسم البلد حيث بلغت الخمسة  
ملايين من ثلاثين مليونا أو يزيد ، ولن نقول « الورم

الأكبر The Great Wen » كما قال كوبت Cobbet  
عن لندن في عصر الصناعة . فمن المحتمل جدا أن القاهرة  
تعانى من افراط المتروبوليتانية مثلما تعانى مصر نفسها  
من افراط السكان بعامه . ولكن لعل أخطر من هذا  
النمو - الشيطانى نوعا mushroom - ملمح ملح مزمن  
قد يحمل شبهة النمو السرطانى ذاته

والاشارة هنا هى يقينا الى توسع الرقعة المبنية على  
الارض الزراعية الثمينة في عالم جغرافى متناه يعانى من  
مجاعة ارضية . فكثير من أبناء القاهرة يذكرون ولا شك  
في مدى عمرهم آلاف الافدنة الزراعية في شبرا والجيزة  
( بمعناها الواسع ) وكيف كانت طرق المواصلات والترام  
تمضى لأميال وسط مزارع ومشاتل الفواكه والزهور  
والخضروات الكثيفة ، ظلت تتضاءل وتنكمش بالتدريج  
وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المباني .  
ولكن هذا كله تحول اليوم الى مبان كثيفة ونفتت  
الزراعة الى آفاق بالغة التطوح والبعد . وإذا كان هذا  
لا يصدق على لسان النمو في اتجاه مصر الجديدة فهو  
للأسف صادق على شعبته الثانية في اتجاه عين شمس  
حيث لا يحاذى امتداد العمران حافة المزرع وإنما  
يتراعى عليه ، لا يجاوره بل يجاوزه

ان المدينة تاكل سكانها كما يقال ، ولكنها هنا تاكل  
ارضها أيضا ، فهى من قوارض الارض الزراعية ،  
وبشراهة ذلك . وقد آن أن يكون الرمل للعمران والطين  
للزراعة . وفي شمال شرق القاهرة تجاه العباسية ومدينة  
نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب ، بينما قد  
يكنم الحل بعد ذلك في الضواحي المنفصلة فيزيقيا عن  
جسم المدينة بحيث تقوم لا في عرض الوادى وإنما على  
حافى الصحراوي ، خاصة على طول مخارج المدينة

الاساسية في طريقى الاسكندرية والسويس الصحراويين

### شبكة الخطه وشبكة المواصلات

حتى النظرة العابرة الى خريطة القاهرة ، بشبكة شوارعها ومربعاتها السكنية ، لا يمكن ان تخطىء ثلاثة ملامح بارزة في خطة العاصمة . اولها وجود عنصرين اساسيين يتقاسمان رقعة المدينة : تخطيط - او بالأصح لا تخطيط - عشوائى تلقائى يمثل النمط العتيق في المدن بل والقرى المصرية عامة ، ويمثل في العاصمة مناطق النواة القديمة منها ، وتخطيط هندسى مصمم منتظم في أشكال مربعة او مستطيلة او مضلعة او دائرية ، يمثل بدوره العنصر العصرى « الاوربى » الجديد في تركيب المدن المصرية الذى أدخل منذ القرن الماضى فقط . وهذه الثنائية الاساسية في الخطه ترمز بسهولة وبلاغة الى الثنائية الحضارية في مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم والجديد والاصيل والدخيل

الملح الثانى هو سيادة مساحة التخطيط الهندسى الحديث سيادة حاسمة بالنسبة الى مساحة اللاتخطيط العشوائى القديم . وقد يبدو هذا غريبا نظرا لحداثة عهد التخطيط الهندسى المنتظم ، ولكنه فى الحقيقة يلخص - فى نظرة - قصة نمو المدينة الحديث حيث وجدنا ان الرقعة الكبرى من كتلة المدينة هى أساسا بنت القرن الاخير والمرحلتين التكوينية والانفجارية فى تاريخها . أضف الى هذا أن كثيرا من عمليات التقويم والتهديب الهندسى فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم ، مما يخفف من انتشارها وان لم يخف آثارها ثالثا ، وأخيرا ، فمن الواضح أن مناطق الخطه العشوائية القديمة تنحصر أساسا فى اطراف المدينة القديمة خاصة فى الشرق والجنوب ، وان وجدت منها



جيوب شاذة في الشمال أو الوسط . وعلى أية حال ،  
فإن هذا الوضع أوضح جدا في الضفة الغربية منه في  
الشرقية ، حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة  
ويسود التخطيط الهندسي كل الشمال . ويعنى هذا في  
نفس الوقت أن القديم يرتبط بالكتنورات الأعلى من  
المدينة ، بعكس مناطق التخطيط الهندسي الحديث

وهذا الملمح الأخير كله يتفق الى حد كبير مع قانون  
الخطة في المدينة المصرية عامة ، حيث نجد دائما كتلة  
قديمة عشوائية في القطاع الجنوبي تقوم على ربة صناعية  
مرتفعة محدبة كطبق مقلوب ، بينما تترامى تحت أقدامها  
في القطاع الشمالى وعلى مستوى الارض الطبيعى رقعة  
من التخطيط العصري المنتظم . فالقطاع الجنوبي هو  
نواة المدينة قبل العصر الحديث ، والشمالى هو النمو  
الحديث في القرن الأخير . وتناسب مساحة كل من  
القطاعين الى الآخر بحسب خط المدينة من النمو  
والتضخم في الفترة الحديثة . أى أنه كلما زاد نمو المدينة  
ودرجة انفجار هذا النمو ، قلت نسبة مساحة النواة  
العشوائية القديمة الى مساحة التخطيط الهندسي  
الحديث - والعكس

في ضوء هذه المؤشرات الأساسية ، يمكننا الآن أن  
نتبع خطط القاهرة بشيء من تفصيل . ولنبدأ  
بالتخطيط القديم . هذا نوع من الخطة البدائية الفطرية  
التي تظهر تلقائية غير عامدة ، خطة بلا تخطيط كما قد  
نقول ، تبرز من مجرد تجمع المباني معا . وهى في  
جوهرها خطة القرية المصرية والتي لا تخلو تماما من  
منطق ، بل ومنطق هندسي ، ولكنه باهت بالغ التقريب .  
فثمة حول الحلة طريق دائرى ولكنه غير منتظم ( دابر  
الناحية ) تخرج منه الى قلب المنطقة المبنية عشرات من

الطرق الضيقة والحارات التى تنتهى الى نهايات مسدودة  
فى قلب البلد - أى أزقة مغلقة - والتى تتلوى وتفرع  
وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة أو بأخرى ، والعشوائية  
بادية لا شك فيها ، ولكن خلفها تكمن جرثومة الخطة  
المتشعبة أو الدائرية المتشعبة بصورة أو بأخرى  
radio-concentric

وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ما تنتشر فى القطاع  
الشرقى والجنوبى من القاهرة شرق النيل ابتداء من  
بالفعل هى القاهرة القديمة والاحياء التاريخية والتقليدية  
باب الشعرة والازبكية والظاهر والحسينية فى الشمال،  
حتى السيدة زينب وطولون والسيدة نفيسة جنوبا ،  
ثم تعود فتظهر فى مصر القديمة فى أقصى الجنوب . وهذه  
التي تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحوارى المسدودة  
والتوائها وتعرجها الشديد ، الذى يضاعف منه تضرس  
الطرق بسبب الموضع التلى وتحولها أحيانا الى طرق  
سليمة ، والذى يضاعف بدوره من كثافة المساكن  
والسكان ودرجة التزاحم . والكل ينتهى الى تيه  
لا يبرئ من شبكة طرق لا تصلح للمواصلات الحديثة  
بحال . من هنا كان التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح  
كثير من الحارات والشوارع ، أى بعملية فرض أو  
مزاجعة مفروضة بين اللاتخطيط والتخطيط . والواقع  
ان هذه العملية وأسعة الانتشار فى كل هذا النطاق

ومن طريف المفارقات هنا أن نلاحظ أنه بينما تبدو  
احياء شرق القاهرة ضائعة فى خطتها المضطربة  
العشوائية ، نجد الى الشرق والجنوب منها توا أو  
وشيكا مساحات من التخطيط الهندسى النظيم الدقيق  
تغطى رقعة كبيرة من خريطة المدينة . على أن هذه  
لا ينبغي أن نخدعنا ، فانما هى مدينة الأموات - المقابر  
والجبانات المترامية فى حى الخليفة وفى قايتباى والفقير -

التي تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل كما لاحظ  
ديرموند ستيوارت بدهشة أسماء وأرقاما !

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك ، مع  
نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التي يفرضها  
تنظيم العاصمة ، في حي بولاق ، حيث يبدو كجزيرة  
شاذة وسط التخطيط الهندسى . ثم لا نلقاها بعد ذلك  
الا عبر النهر في أقصى الجنوب من الضفة الغربية ، اى  
في نواة الجزيرة القديمة ( البندر ) حيث تتناثر بوضوح  
صارخ مع بقية التخطيط الهندسى المنتظم الى الشمال

واذ ننتقل الى التخطيط الهندسى الحديث ، الذى  
يغطى بقية رقعة العاصمة فيما عدا بعض جزر واسافين  
قرمية متفرقة من التخطيط العشوائى على اطراف المدينة  
هى القرى والعزب السابقة التى اغرقها وابتلعها المد  
الحديث ، كمنية السرج وبعض العزب المبعثرة في شمال  
شبرا ، وقرى كامبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور في  
الضفة الغربية ، اذ ننتقل اليه نجد صورة مختلفة تماما ،  
بسيطة جدا ولكنها بالغة التعقيد جدا . فالمدينة هنا  
عبارة عن موزايكو لانهاى من وحدات مساحية ذات  
اشكال هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل  
وقليلا ما تجنح الى الدائرة أو المضلع . ولكنها دائما  
خطوط هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية  
مماثلة في هندسياتها . اما التعقيد فمصدره ان هذه  
الاشكال المنتظمة القائمة الزوايا لا تتبع في توجيهها  
بالنسبة للجهات الاربع الاصلية محورا واحدا باستمرار ،  
كما هو الحال في المدينة الامريكية مثلا ، وانما تتبع  
— حرفيا — عشرات وعشرات من المحاور التى تختلف  
من رقعة الى اخرى وتستقل بها كل واحدة عن الاخرى

كانها صفحة الغاز Jig-saw . ومن هنا قلنا بسيطة ومقدمة في آن واحد . ولا يستثنى من ذلك الا المعادي وحلوان حيث محور توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة اكثر في كل المنطقة المبنية

واذا كانت المحاور القاعدية التى تحكم تلك الرقع الشطرنجية اللامتناهية متنافرة كل التنافر ، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطا ، بل هى من وحى وتوجيه ضابطين أساسيين : النهر ، ذلك الشريان المحورى الذى تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة ، والشوارع الرئيسية أى الطرق الشريانية التى تفتح الاحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها ..

فأما النهر فموجه حاسم وحتمى . فسواء على الضفة الشرقية أو الغربية ، ولكن على الأخيرة بالأخص ، يجرى عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسى ( ممتطيا ظهر جسر الطراد عادة ) يمتد بطول النهر ويحاذيه ، كشوارع الجزيرة والقصر العينى على الترتيب . ولما كان للنهر تعرجاته وانحناءاته ، فان ذلك الشارع يتبعها بأمانة . وكذلك تفعل الشوارع الثانوية الموازية الى الداخل . ولما كانت الشوارع العرضية عمودية على الطولية ، فان شبكة الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير في محاور اتجاهاتها الاصلية من قطاع الى آخر بحسب تعرجات النهر الحاكمة

خذ كل الضفة الغربية من الدقى حتى امبابة ، ولن تجد لهذه القاعدة تبديلا . وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمق سكة حديد حلوان : الشوارع الطولية تحاذى النهر ، والعرضية تتعامد عليه وعليها . وبالمثل في جزيرة الروضة ، حيث توازى الشوارع الطولية

شاطئ الجزيرة الاثنين ، حتى اذا ضاقت الجزيرة في الجنوب تبعت الخطة محور أحد الشاطئين دون الآخر ، فتتكون شرائح مثلثة شاذة . ونفس الشيء واضح في فم الخليج وأبو السعود شمال مصر القديمة ، مثلما هو في الشمال في روض الفرج والساحل عموما

أما عن اثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح في الداخل ، بعيدا عن أثر النهر . فهذه تصبح العمود الفقري الذي تتركب عليه - بزوايا قوائم - تفاصيل الخطة الهندسية ، فاذا انحرف العمود انحرفت معه واتجهت بحسب توجيهه . أما مسارات تلك الشرايين فتحددها المواقع النسبية بين الثقط الاستراتيجية في المدينة ، أو ربما ضوابط الموضع القديمة كالتفرع الحفرية التي ردمت وتحولت الى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصري ( شارع بورسعيد الان ) والترعة البولاقية ( شارع الترعة البولاقية )

والأمثلة عديدة . ففي شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا ، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية ، وكل تفاصيل الخطة المربعة في الحى برمتة تعكس اتجاه كل منهما . ولكن المثل الكلاسيكى هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس ، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحي . ففي كل هذا النطاق المتراعى ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة ، ولكن على عديد من المحاور المتناثرة جدا . غير أن هذه جميعا انما تتحدد بدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق الترو ، الذى ينحن ويتعرج بحسب مساره ووجهته . والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية محورا يوشك أن يكون شرقيا غربيا ، بينما أن منطقة كالمطرية وعين شمس ينقلب فيها

المحور الى شمالي جنوبي ، في حين يتعدل فيما بينهما بالتدرج كالبندول

هذا ، وتمثل الزمالك - النصف الشمالي من الجزيرة - حالة طريفة ، ففيها يجتمع اثر النهر والشارع ليذمفا الخطة بطابع فذ . فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسي الحاكم الذي يقطع الجزيرة بين كوبري ٢٦ يوليو ( أبو العلا ) وكوبري الزمالك ، وبذلك تتقاطع الشوارع الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينها اشكالا هندسية نادرة كالمعين وشبه المنحرف ... الخ ، بينما الى الجنوب من شارع الكوبريين تسود شبكة مربعات منتظمة تتوازي معه وتتعامد عليه نضا

وينبفى أخيرا أن نذكر نمطا خاصا ومحليا من التخطيط الهندسى ، لا يتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر ما يتبع الدوائر المتقاطعة والاقواس المتداخلة . ونعنى بهذا خطة الحدائق الانجليزية English Gardens ، التى تنحدر أصلا عن فن تخطيط البساتين landscape gardening فى جاردن سيتى وحدائق القبة نجد خطط الشوارع كاقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز . وبقيدر ما تعطى هذه من منظور معمارى فخم ومبان انسيابية فى لاندسكيب الحى ، تعطى من مشاكل المواصلات . فهاتان المنطقتان متاهتان من أشق قطاعات العاصمة لسكانهما ولغير سكانهما على ما نعلم

واذا نظرنا الى مناطق التخطيط الهندسى فى العاصمة بعامة ، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط أو تنشأ فى ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطامى مع النمو الجزئى . ولهذا فهى تترابط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة رديئة مفككة غالبا ،

والأغلب أن تترك فيما بينها مساحات وجذاذات شاذة  
الشكل أو حادة الزوايا .

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر في محاور التوجيه  
يخفف من تنميط الخطة ورتابة الاحياء والشوارع ، كما  
يعنى تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطى  
فرصا أكثر للتهوية والاشعاع والظل ، كما يمنع تحول  
المدينة الى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلا . ولكن  
نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوى  
عن طريق المواصلات ضعيفا مفككا . وينم عن هذا ويشى  
به محاولات موضعية هنا وهناك لفرض مجموعة من  
الشوارع المتشعبة على بعض تلك الخطط الهندسية  
المربعة ، تتحول بها الى شيء أشبه بالخطط الدائرية  
المتشعبة أو قل المضلعة المتشعبة ، كما فى الاسماعيليه  
فى وسط البلد وكما فى وسط الروضة وفى العجوزة ثم  
السكاكنى بالظاهر ، ولكن بالأخص فى مصر الجديدة

غير أن هذا غالبا ترقيع موضعى أو تحايل محلى ،  
ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعى ولصقت أجزاء  
خطتها الى بعضها بالتقسيط وبلا اطار عام . فاذا أضفنا  
الى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة ، مع ضخامة  
رقعة العاصمة عموما ، لكان حقا أن يقال أن القاهرة من  
المدن التى يصعب التعرف على اجزائها والحركة فيها .  
ولكن هذا أدخل فى باب المواصلات ، وهو ما ينقلنا الى  
شبكة النقل العاصمة



رغم بعض الشوارع الرئيسية التى تحاول أن تصحح  
اخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء اللاتخطيط  
العشوائى ، الا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية

متشعبة على مستوى العاصمة ككل . وهناك أكثر من  
بؤرة تشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هي  
التي تبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها . ولعل  
أهمها محطة مصر حيث تخرج منها شرايين شارع شبرا  
شمالا ، وبولاق غربا ، والجلاء جنوبا بقرب ، الجمهورية  
جنوبا ( ابراهيم سابقا ) ، ثم شارع رمسيس بوابة  
وعنق زجاجة كل ضواحي شمال شرق القاهرة . وتقدم  
العتبة بؤرة أخرى ، فميدانها مصب لحركة شرق المدينة :  
شارع الجيش الى العباسية ، شارع الموسكى - جوهر  
الى الجمالية ، شارع الازهر الى الفورية والدراسة ،  
شارع القلعة الى القلعة والخليفة . وميدان باب اللوق  
والسيدة زينب بؤرة أخرى

على أن هذه الحزم المتشعبة لا تؤلف فيدا بينيا خطة  
متشعبة بمعنى الكلمة ، ولو أن الملاحظ أن شبكة خطوط  
الترام كانت تقليديا وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع  
ما يرسم خطة متشعبة بارزة ، لا سيما من مركزين هما  
ميدان محطة مصر والسيدة زينب

وعدا هذا فينبغى أن نلاحظ أثر مواقع الكبارى  
النهرية على تقنيل شبكة المواصلات . فعلى جانبي النهر  
فى كل من كوبرى التحرير وكوبرى الجلاء يتحدد موقع  
حزمة كثيفة من محاور الحركة والنقل ، بل أن كلا من  
هذين الميدانين يشكل فى الواقع بوابة ضفته الحقيقية  
على النهر . ومثل هذا يقال عن كوبرى ٢٦ يوليو والرمالك  
فى الشمال ، وكوبرى الجيزة والملك الصالح فى الجنوب ،  
بدرجات متفاوتات . والحقيقة أن مواقع هذه الكبارى  
التناظرة والمتراطة ، التى هى أعناق الزجاجات الحاسمة  
والخاتمة بين ضفتى النهر ، هى التى تحدد معظم الشرايين



العرضية التى تقطع المدينة من طرف الى طرف . والتى  
تعانى القاهرة من قلتها بوضوح

ولأن القاهرة مدينة طويلة اكثر منها عرضية ، فان  
اهم محاور وشرايين الحركة هى الشمالية الجنوبية التى  
تخترق بالضرورة قلب المدينة فيختنق بها . وهذا هو  
المحرك الاساسى خلف فكرة انشاء طريق دائرى يلف  
بأطراف المدينة دون أن يخترق قلبها ، كما يتمثل فى  
شارع بورسعيد ، اطول شوارع القاهرة الآن ، والذي  
يرتبط أساسا بشرق المدينة القديم ، وكذلك شارع  
صلاح سالم الذى شق حديثا

من كل هذه الروايات يتضح لنا بجلاء أن مشكلة  
المواصلات فى العاصمة لا انفصال لها عن مورفولوجيتها  
وهيئتها الجغرافية البحتة . ويقف فى مقدمة هذه  
الضوابط الجغرافية اثنان . أولا ، انشطار المدينة الى  
شقين أو ضفتين ، الأمر الذى يجعل على الفور من كبارى  
النهر أخطر نقط استراتيجية حرجة فى تدفق الرحلة  
اليومية الى العمل . ثانيا ، اتخاذ أطراف المدينة  
الشمالية شكل لسانين أو مثلثين ضخمين فى شبرا -  
روض الفرج وفى مصر الجديدة - عين شمس ، يتصلان  
بجسم المدينة فى أضيق رؤوسهما ، أى بأعناق زجاجة  
مختنقة على التو . وهذا النمط بارز جدا فى الحالة  
الآخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد  
أن يكون منفصلا إلا من عنق دقيق عند كوبرى القبة .  
فى كل هذه المواقع بنوعيتها ، كبارى النهر وأعناق  
الضواحي ، تتأزم مشكلة المواصلات الى حد الاختناق

على أن الذى يضاعف منها أن كل تلك الاطراف فى  
الضفة الغربية عموما وفى شمال الضفة الشرقية هى

باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل .  
ثم هي تتضاعف مرة أخرى كالريح المركب بطبيعة هذه  
الاحياء . فان كانت شعبية لا تملك كثافة السيارات  
الخاصة ، فهناك كثافة السكان العالية التي تنعكس على  
وتترجم الى كثافة السيارات العامة ( لسان كتلة شبرا  
- روض الفرج ) . وان كانت سكنا راقيا اقل كثافة  
سكان ، فهناك كثافة السيارات الخاصة ( لسان  
الشمال الشرقى ، والضفة الغربية )

- ولا تقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة  
مفرى وخطرا عن شبكة النقل الأخف . ويمكن ابتداء  
أن نزع ان محطات السكك الحديدية في المدينة المعاصرة  
هي بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وانما انتقلت  
من السور الهامش الى الوسط . انها « مداخل » المدينة  
ولكن في الداخل . ولعلها أكثر من صدفة أسماء « باب »  
الحديد ، و « باب » اللوق ، كأنما تلح لتذكرنا بأنها  
وظيفة وان لم تكن موقعا وريثة «باب» زويلة أو «باب»  
النصر مثلا ..

ومواقع محطات السكة الحديدية في القاهرة استراتيجية  
تماما ، فمحطة مصر ( وكوبري الليمون التابعة ) ومحطة  
باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية ، وتخرج منها  
الخطوط القومية او خطوط الضواحي في اتجاهات ثلاثة ،  
شمالا وشمالا شرقا وجنوبا

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية  
كالخليفة العارمة لشبكات الاوتوبيس ، فهي أقطاب  
مغناطيسية للمواصلات عموما وتقط انقطاع وتفسير في

وسيلة المواصلات ( من السيارة الى القطار أو العكس ) .  
غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام ، بمثل ما أن  
خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات  
حاددة في تدفق حركة المرور كما يتبلور خاصة على طول  
خط مترو شمال شرق القاهرة

وقد انعكس تازم مشكلة محطات السكك الحديدية في  
المدينة في أن التكامل والتعايش بين القطار والسيارة  
تحول أخيرا الى صراع انتصر فيه القطار في محطة مصر  
حيث نقلت محطة أوتوبيسات الأقاليم بعيدا الى أطراف  
المدينة في شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين  
عوامل الطرد والجذب المركزية . أما في محطة باب اللوق  
فيبدو أن القطار هو الذى سيخسر الحرب ، إذ تقرر  
مبدئيا في مشروع خطوط الانفاق المزمع أن تنقل نهاية  
خط الضواحي جنوبا الى كوبرى الملك الصالح

من كل هذه الخيوط المعقدة أذن تنسج مشكلة  
المواصلات أخطبوطها الخانق المزمع في العاصمة التى  
يُسْت نهائيا من الحلول السطحية - أعنى على سطح  
الأرض - فلجأت الى الحلول تحت الأرضية كما تتمثل  
في فكرة مترو الانفاق الذى يعكس مشروع خطته المبدئية  
شكل المدينة الطولى أساسا ، إلا أن جذور المشكلة تكمن  
في أكثر من قضية ، منها الفارق الحضارى : فشوارع  
المدينة خططت في عصر - ولعصر - ما قبل السيارة  
وما قبل الصناعة ، وهى الآن تعاني بالضرورة من تصلب  
الشرايين واحتقان الدورة الدموية

ولقد اثبتت تجربة العواصم الكبرى المماثلة ان خطوط  
الانفاق ليست بالضرورة الكلمة الأخيرة في القضية ،  
ولا تلبث مشكلة المواصلات السطحية أن تعود . فلندن

وباريس تملكان خطوط انفاقهما منذ عقود وعقود ، وكذلك نيويورك ، ومشكلة المواصلات السطحية لم تزل مزمنة . ولعل بعض الدرس المستفاد هو أن القاهرة الكبرى بحاجة حقيقية - مع أو قبل الأنفاق - إلى عملية « هسمننيزايشن » *Hausmannisation* ، كما تسمى ، على غرار ما عرفت باريس في السبعينات الماضية ، جريئة واسعة الخيال دون أن تكون راديكالية بتارة بالضرورة ، فتفرض على أرضية خططها الفسيفسائية نظاما متشععا ، متعدد البؤرات - منعا لتركيز المشكلة في نقطة واحدة - من البوليغارات المحورية الشريانية ذات التوقيع الاستراتيجي بحيث تتحول هيدرولوجية النقل في قلب المدينة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب

كذلك لا مفر من إعادة توزيع العمل والسكن في محيط القاهرة الكبرى . فتركيز العمل في القلب التجارى المركزى ( C.B.D. كما يسميه الأمريكيون ) وغيابه إلى حد بعيد في الأحياء السكنية في الأطراف عامل جذرى وقاعدى . ولعل من الضرورى أن يتحول قلب المدينة نفسه هو الآخر إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب ، بخلق نويات جديدة في الأطراف كمراكز ثانوية *subcentralisation* ، تخفف الضغط عن القلب المركزى وبالتالي تخفف من كثافة الرحلة إلى العمل

### التركيب الوظيفى

المدينة أى مدينة حزمة من الوظائف في التحليل الأخير ، وليست المؤسسات والمباني الاوعية مادية لتلك الوظائف المركزية . . غير أن هذه لا تتعايش معسا الا بعد صراع على المكان ، فالوظائف تتنافس فيما بينها على الموقع والموقع الممتاز أو الأنسب من وجهة نظرها ،

وتحصل عليه الوظيفة الاقدر التي تدفع اكثر . ولما كانت قيم الارض والعقارات والايجارات أعلى ما تكون في قلب المدينة الضيق المكتظ ، فان وظائف المدينة تنضد ( أى تنفط ) تلقائيا بالتفاعل والشد والجذب بين مجموعة من القوى الطاردة المركزية centrifugal تطرد الأضعف الى أطراف المدينة ، وبين مجموعة من القوى الجاذبة المركزية centripetal تجذب الأقوى الى القلب ..

والوظائف مجموعتان عريضتان : وظائف عمل وانتاج كالتجارة والإدارة والصناعة ، ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه . غير أن بين المجموعتين حلقة وصل هامة هي السكن . والسكن وظيفة بالمعنى الصحيح لا شك ، بل هو الوظيفة التي تغطي أكبر رقعة من مساحة أى مدينة في العادة . ومصدر أهميتها أنها المفتاح والمدخل الطبيعي لوظائف الخدمات ، فهي غالبا الاطار الذى تدور فيه وتتشكل به قليلا او كثيرا . ومع ذلك فالسكن وظيفة من نوع خاص جدا ، ربما قلنا وظيفة سلبية تميزها لها عن الوظائف الموجبة من انتاج او خدمات . ولهذا فلعل من الخير لنا أن نعالجه على حدة بحسبانه طبوغرافية المدينة الاجتماعية ، حيث تمثل الوظائف الموجبة طبوغرافيتها الاقتصادية



وفي القاهرة ، اذا بدانا بالوظيفة التجارية التى تلعب دورا حيويا في كيانها كعاصمة قومية فضلا عن كونها مدينة كبرى ، امكننا ان نميز بين ثلاثة انواع من التجارة تمثل في الحقيقة ثلاث درجات من المركزية . فهناك أولا التجارة المركزية التى تتكدس وتتراحم بلا هوادة في قلب

المدينة . ويلمس القاهري نبض التجارة المركزية في مدينته بالتدريج من مشارف شارع الجلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحية ، ومن شارع الجمهورية الى العتبة من ناحية اخرى ، حتى الموسكى وما وراءه تجاه الغورية وشارع الازهر . الخ . ففي هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجزئة والجملة ، السلية والمالية ، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية . هنا كل مراكز المؤسسات والشركات الهامة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية الضخمة التي تتجاذب حولها المحلات الصغيرة . وهذه المنطقة التجارية تمثل الجهاز العصبى المركزى للوظيفة التجارية لسكان العاصمة واقليم العاصمة جميعا من اخص خصائص هذه المنطقة أن تجارة الجملة ، الأقل اتصالا بالجمهور المباشر والتي تحتاج الى مساحات اوسع ، تنزوى نوعا الى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفى هى بأن تقف خلفها لتغذيها وتخدمها . اما التجزئة فتعيش على الموقع الاستراتيجى البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطئ قدم صغير ولكنه حساس وباهظ الثمن أو الايجار ، فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطة مصر وتجاه التحرير فى منطقة معروف تسودهما مخازن الجملة خاصة من قطع غيار السيارات والاطارات والادوات الكهربائية . وفى اركان ميدان الفلكى تتركز تجارة اطارات السيارات . وفى مداخل شارع القلعة كما فى الفجالة تتركز تجارة الورق والوراقين وادوات الكتابة . وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديمة والانتيكات . الخ . وكل

هذه شوارع قل أن يرتادها الجمهور اليومى العريض ،  
وهى اكثر هدوءا نسبيا من شوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت  
حرب وعدلى وقصر النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث  
لا نجد الا تجارة التجزئة الكثيفة المضطربة بالحياة  
والحركة . وبينما يظهر التخصص فى خط واحد بحسب  
الشوارع أو المناطق فى حالة تجارة الجملة ، يغلب على  
تجارة التجزئة الطابع المختلط عموما ، والذي يصل الى  
مداه فى المحلات الكبرى المنوعة multiple stores مثل  
شيكوريل وهانو وجاتينيو . الخ ، ولتصق وثيقا بعين  
المنطقة نصا

من أهم الخصائص بعد هذا ، الفصل الجغرافى بين  
محلات التجارة المصرية والقديمة التى تختلف أيضا فى  
روادها ، فالأولى أكثر ارتباطا بجمهور العاصمة نفسها  
أولا وبطبقاته الأكثر غنى ثانيا ، بينما يكثر فى زبائن الأخيرة  
أبناء اقليم المدينة من الريف المجاور أو البعيد الى جانب  
الطبقات القاهرية الشعبية . فالقطاع الغربى من منطقتنا  
تستأثر به التجارة المصرية ، بينما تتراجع القديمة الى  
القطاع الشرقى ابتداء من العتبة تقريبا . فهنا تسود  
المحلات الشعبية والتقليدية ويتحول السوق الى  
« سويقات » ، وقد يخرج من المحل الى الرصيف ومن  
الرصيف الى المتجول . كذلك يكثر التخصص بالشوارع  
ويرداد دور الجملة ، كما نرى فى محلات المصنوعات  
الجلدية والاحذية والصينى على نواصى العتبة ، وتجارة  
الذهب والصياغة فى المونكى والصاغة ، والاقمشة  
الخشنة وغزل الانوال الريفية فى شارع الأزهر ، والعطارة  
فى الفورية . . . الخ

تلك هى تجارة القاهرة المركبة ، التى يتعدى اشعاعها

حدود العاصمة ، ولكنها مع ذلك لا تحتكر كل نشاطها .  
فهناك التجارة الثانوية أو المراكز الثانوية أو تجارة الاحياء  
التي تظهر في مفارق الطرق الاستراتيجية في أغلب الاحياء  
كنسخ مصغرة محلية - كأنها الاقمار في فلك شمس -  
من منطقة التجارة المركزية ، التي تخرج منها كالأشعة  
في الواقع السنة ممتدة على طول الشوارع الرئيسية في  
المدينة تحتل المحلات التجارية جوانبها وواجهاتها ، حتى  
إذا تجمعت في مفارق الطرق بعيدا عن قلب المدينة برزت  
من تلاحمها وتكاثفها تلك المراكز الثانوية التي تخدم  
الاحياء

ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة ، وهي  
آلاف المحلات الصغيرة المبعثرة في كل شوارع أو زوايا  
ونواصي الجزيرة والاحياء السكنية ، والتي يتحدد توزيعها  
عادة بحسب كثافة السكان ، مثلما يتحدد مستواها  
بحسب الحالة الطبقيّة . وعادة ما تمثل هذه مشكلة في  
مناطق الهوامش والأطراف من المدينة حديثة النمو  
كالعجوزة الآن، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد  
أو لا يظهر منها أولا إلا محلات الضروريات كالبقالة  
والتأمين ، وتظل المنطقة خاما تعاني من نقص الخدمة  
التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر  
الخدمات التجارية الأكثر رقيا وترفها



من الوظيفة التجارية ننتقل منطقيا الى الادارية .  
فكعاصمة سياسية ، لها شهرة تقليدية بمرکزية  
بيروقراطية ثقيلة ، تلعب الادارة دورا هاما في حياة  
القاهرة . ويكفي أن أكثر من ثلث هيئة موظفي الدولة  
يتركز فيها . والوظيفة الادارية تتداعى مؤسساتها



بالطبع ، وتميل الى التجمع الجغرافى ، كما انها تحتاج الى موقع مركزى دون أن يكون بالضرورة فى صميم القلب المزدهم الصاخب

من هنا ، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركزية ناحية الجنوب والجنوب الغربى ، تمتد رقعة دولة الادارة وتتابع أجهزتها كأنها قشلاقات جيش الموظفين . فابتداء من ميدان التحرير ، الذى يقف مجمعه الشاهق ليعلم كنصب تذكارى عن حدود تلك الدولة ، وفيما بين شارع القصر العينى وخط حديد حلوان ، يمتد لنحو الميل حى الوزارات والبرلمان بلا انقطاع ، ككتلة بالجملة أو كحجر واحد . بل وتطفو خارجها طفوح النمو والرياح المركب ، حتى تصل عبر ميدان لاطوغلى الى ميدان الجمهورية حيث كانت قاعدة الحكم طويلا

ويلاحظ انه يرتبط بهذه الكتلة ارتباطا صميما ومباشرا ، وظيفيا وجغرافيا ، شريحة مميزة بكاملها على الجانب الآخر من شارع القصر العينى من السفارات والمقنصليات ، تتمثل فى قصر الدوبارة وجاردن سيتى التى تتصل بها مباني الخارجية والجامعة العربية المترابطة أيضا . هنا دولة السلك السياسى الاجنبى الذى يحتاج الى أن يتعامل مباشرة وفورا مع دولة الموظفين المجاورة . وقديما ، وفى العصر الاستعمارى ، قلعل الكلمة الدارجة « ما بين لاطوغلى وقصر الدوبارة » كانت تعبر عن علاقة أكثر من عابرة . على أن هذه الشريحة انما ترتبط بالوظيفة الادارية السياسية ارتباطا جزئيا ، ولكنها أساسا منطقة سكنية وليست من القلب الادارى

\*\*\*

العاصمة بعد هذا هى عاصمة الصناعة المصرية أيضا ،

ففيها أكبر حشد للصناعة في البلد . وإذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبيا في وظائف القاهرة ، فهي منذ القدم مركز تليد للصناعة القديمة والمحلية التي تراجعت الآن كثيرا جدا في أهميتها لتترك الصدارة المطلقة للأولى . وهذه التفرقة هي نفسها مفتاحنا للتمييز وظيفيا وجغرافيا بين الصناعة الخفيفة والثقيلة ، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والآلية . فالصناعة الثقيلة ليس لها مكان إلا على أطراف المدينة ، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم في داخلها ولكن بعيدا عن قلبها التجاري

على أننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة استعمالا نسبيا خاصا فيه قدر من تجاوز . فلعل من الخير ومن المقبول لأغراضنا وفي إطار المدينة المحلى الضيق أن نطلق الأولى على الصناعات الأكثر أهمية وحجما أو وزنا في اقتصاد أو لاندسيب المدينة ، والثانية على الأقل خطرا ومقياسا أو ثقلا . وهذا مع العلم بأنه لا صناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح في القاهرة إلا صناعة الحديد والصلب في حلوان

فمن الخفيفة نجد خلية قديمة من الورش والمصانع الصغيرة والمعامل التقليدية في بولاق والسبتية ، ترتبط غالبا بالحدادة والسمكرة وتصلح وتجميع الآلات والمراكب ووابورات السكة الحديدية ، وتعتمد أحيانا على الخردة التي لها سوق تقليدية فيها ( وكالة البلح ) ، كما تعمل في الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتداد أو بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة في القرن الماضي أيام محمد علي حين استمدت « المبيضة » اسمها من صناعة تبييض الأقمشة

وعلى الجانب الآخر الشرقى من المدينة خلف الموسيقى والغورية وباب الخلق حتى السيدة زينب ، فى الجمالية والدرب الأحمر ، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة التقليدية والحديثة التى تتراوح بين معامل الفزل المتوسطة وصناعات الأغذية وتعليب الفواكه وفابريكات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياسة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية . ومن هذه الوحدات ما يقوم فى بنىات أنشئت خصيصا للصناعة ، أو فى شقق أو بدرومات المساكن العادية ، وبعضها لا يخضع للمواصفات والمقاييس الدقيقة للصناعة ، وبعضها نصف آلى نصف يدوى ، ومنها ما ينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الافراد من الجمهور . .

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة ، التى لا تحتاج الى رؤوس أموال أو عمال أو خامات ضخمة أو مساحات شاسعة ، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحدث نسبيا ، هى وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست منعزلة عنها . ولكنها من الناحية الأخرى لا يمكن أن تقوم - وما قامت هنا - الا فى تضاعيف أحياء سكنية فقيرة أو شعبية ، ووجودها نفسه بين ظهرانيتها واحد من عوامل خفض درجتها السكنية ، غير أنها فى النهاية من أهم مصادر الدخل والعمل للسكان ، فمن بين صفوفهم تستمد كل قوتها العاملة

وأخيرا فان تركيز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكثافة ملموسة هو فى الحقيقة استمرار لتوطن صناعات تقليدى قديم هنا . ففى هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة

كان القلب الصناعى للقاهرة الوسيطة ، بتنظيماتها ونقاباتها واسطواناتها . وصناعاتها اليوم تستمد بعضها من مسحة وخصائص صناعات الـامس ، اما متطورة أو متدهورة نوعا ، وان كانت لا تبدى التخصص الجغرافى الذى كان يسود قديما حين كانت كل صناعة - على طريقة العصور الوسطى - ترتبط بشوارع أو حارات معينة لا زالت مقروءة حتى اليوم فى الاسماء وان زالت من اللاندسكيپ . من هذه الاسماء - التى لم تعد اسما على مسمى بالضرورة - السروجية والسيوفية وسوق السلاح حول القلعة ، ثم المغربلين والكحكيين والفحاميين والنحاسين ... الخ

فاذا انتقلنا الان الى الصناعة الثقيلة ( تجاوزا أو نسبيا ) ، التى هى أحدث جدا من الناحية التاريخية ، فانما ننتقل من وسط جسم المدينة الى اقصى أطرافها والهوامش . فالصناعة الثقيلة وظيفه هامشية جدا بالضرورة ، تقلد بها عوامل الطرد المركزية الى حواف المجمع ، بل على انفصال فيزيقى عنه ان أمكن ، بينما لاتجد هى نفسها أى فائدة أو منطق فى السعى الى داخله

واذا كانت هذه الصناعات حديثة تاريخيا وعصرية تكنولوجيا ، فشمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائية ومحلية بالضرورة تبدى على قلة أهميتها تركزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنهل بصرامة عن جسم المدينة . ولعل المثل الكلاسيكى هو صناعة التحجير والجير والطوب . فمحاجر القاهرة وجاراتها مركزة كلها بالضرورة فى الجنوب الشرقى فى جبل المقطم أساسا ، حيث تتتابع عشرات وعشرات منها فى نطاق واضح ، يتحصر بين كنتورى ١٠٠ - ٨٠ مترا

في الشرق ، ٦٥ - ٣٥ مترا في الغرب ، ويمتد من  
مشارف الجبل الأحمر حتى نهاية الخليفة ، كما يتناثر  
عدد منها في تلول عين الصيرة ويطن البقرة غير بعيد عن  
مصر القديمة التي تعرف نشاطا هاما في صناعة وتجارة  
الجير والجبس . وليس من الصدفة أن كثيرا من مباني  
شرق القاهرة هي من الحجر أكثر منها من الطوب . وعلى  
النقيض تماما من المحاجر التي ترتبط بالجبل ، ترتبط  
القمان وصناعة الطوب بالجزر النيلية وطميةها . فجزيرة  
الذهب غابة من المضارب ، وهي المورد الأول للعاصمة

وما دما هنا في دائرة المحاجر ، فقد يمكن أن نمضي  
منطقيا الى الجنوب ، الى طرة والمعصرة ، لنجد استمرارا  
وظيفيا ، ولكن مع انقطاع جغرافي جزئي وتكنولوجيا  
تام ، للصناعة المرتبطة بالمحاجر . فمنذ أوائل القرن  
قامت هنا وحدات مصرية . وعلى أضخم نطاق لصناعة  
الأسمنت والجير ، طمرت في العقود والستين الأخيرة  
لتصبح أعظم صرح في هذا الخط لا على مستوى الجمهورية  
وانما على مستوى القارة ، يغطي انتاجه الاستهلاك  
القومي ويوجد فائضا هاما للتصدير . والوحدتان ، اللتان  
تستوعبان بضعة الاف من الأيدي العاملة واللذان تعدان  
بمقياسهما وطبيعة منتجاتهما من أثقل الصناعات ، هما في  
الحقيقة مستعمرتان ضخمتان من التخصص المطلق  
بالضرورة الحتمية ، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة  
تماما ، ولكنهما تدخلان في صميم وشقوق كل نسيج فيه

غير أننا في الحقيقة اذا قلنا الصناعة الثقيلة فقد  
قلنا شبرا . في الشمال ، وطلوان في الجنوب . هاتان  
قطبا الصناعة الثقيلة ، وأعظم منطقتين صناعيتين  
منفردتين في مصر عموما ، وتبلغ قيمة رأس المال الذي وضع

في صرح كل منهما الآن بضعة مئات من الملايين من الجنيهات

والقطب الشمالى اقدمهما ، بدأ بمضاربات  
الراسمالية والبورجوازية الاجنبية ، والمتصرة والمصرية  
ابان الحرب الثانية للكسب الاستغلالى السريع والصريح  
في صناعات الغزل والنسيج والتريكو . والجوارب خاصة  
والقطنية اساسا ، في مصانع متهاكة ، وفي خطة عشوائية  
، وفي ظروف عمالية سيئة . ولكن النواة التى بدأت  
منفصلة جغرافيا في شبرا الخيمة نمت قبل التاميم ثم  
طفرت بعده حتى توسعت زحفا : الى الشمال حتى  
تخطت حدود القليوبية وضواحي مصر ، والى الجنوب  
عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق  
شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه . كما انتقلت بعد  
ذلك من القطنيات الى الصوفيات والحريزيات  
وباللاستيك والنايلون ، كما نمت لنفسها صناعات  
تكميلية مسانعة من المعدنية والاطارات . الخ ، لتؤلف  
منطقة صناعية متنوعة ومتكاملة افقيا ورأسيا بمعنى الكلمة

وبقوة هذا القطب الصناعى ، انبثقت اخيرا نويات  
صناعية احدث على طول التربة الاسماعيلية وشوارع  
بور سعيد ، زحفت حتى مسطرد ، وترتبط بصناعات  
تعبئة الغاز والكاثوشوك . الخ . ومن قبل قفرت  
حول ذلك القطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن  
العشش والصفيح لا زالت دون المستوى كثيرا وتمثل  
خلية من التزاحم الخطير ، تجمع في محيطها بضع مئات  
من الالاف من العمال واسرائهم

هذا ، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الام نوية  
حديثه متواضعة وزنا وحجما ولكنها تناظرها عبر النهر  
في شمال الضفة الغربية في امبابه ، تدور اساسا حول

النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجوارب ،  
تخلقت حولها هي الاخرى مستعمرة عمالية - مدينة  
العمال بامبابية - الا انها مخططة هندسيا على نمط  
مستطيل . وقد تقاطرت بجوارها اخيرا محطات القوى  
والمياه ... الخ

والآن ، ومن وجهة جغرافية المدينة ، فلا شك أن منطق  
توقيع هذه المناطق الصناعية الغلبة يدعو الى التساؤل .  
لسببين اساسيين : اولهما انها تقوم في صميم الارض الزراعية  
الثمينة ، فهي وان نقلت بالتحول المهني عشرات الالاف  
من الفلاحين الى عمال فقد عقت الالاف من اجود  
الاراضي ، كما أصبحت نفاياتها مصدر تلوث خطير لمياه  
المصارف والترع . السبب الثاني أن هذا الموقع  
الشمالي يأتي على النقيض تماما من كل منطق التخطيط  
في بلد تسوده الرياح الشمالية وتطلب لداتها كتيار  
منعش شتاء ملطف صيفا ( البحري ) . فهي تلقى بكل  
دخانها وافرزاتها على سماء المدينة الى الجنوب . ولعل  
هذا وحده أن يفسر كيف خففت القيمة السكنية  
لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة  
وأحياء العمال في القطاع الشمالي من المدينة هنا في  
شبرا وروض الفرج والساحل في وقت كان يمكن فيه  
أن يستقطب السكن الراقي باجتماع الواجهة الشمالية  
مع الجبهة المائية على النيل

غير أنه ما من شك أن الذي يفسر هذا التوقيع  
الخطيء سكنيا هو الميزة الموقعية الاقتصادية . فهنا في  
الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل وأسرع اتصال مع  
كتلة الدلتا الغنية بمصدر خامها وغذائها الاول وممر  
التصدير والاستيراد الخارجى : لقد تغلبت مصالح

الانتاج على السكن ، ومصالح صاحب رأس المال ( قبل التأميم ) على صاحب العقار

واذ تنتقل الى حلوان - القطب الجنوبي - نجد المسرح مختلفا ، والقصة أحدث ، بكثير . فهنا ومنذ عقد تقريبا غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية منفصلة ، سكنية سياحية ، ترقد هادئة حول عيونها المعدنية كمدينة من مدن الميساء Spa town ، لترتفع الافران العالية الى جانب بناييعها المعدنية . هدم اول قلعة لصناعة الحديد والصلب ، قاعدة الصناعات جميعا ، بدأت على خام أسوان والنقل النهري وتتحول الى خام الواحات البحرية والخط الحديدي . ففي احضان وادي خوف زرعت غابة من المصانع والمداخن والافران تتراعى لبضعة اميال وتعمل على خط انتاج واحد كسير متحرك ، لتنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات ، والآلات المعدنية وقطع الغيار واسياخ التسليح ، عدا صناعة السيارات تصنيعا وتجميعا ، وعدا الصناعات الحربية والادوات المنزلية الحديثة ... الخ

والعملية هنا انقلاب عمراني كامل بقدر ما هي انقلاب اقتصادي . فامام حلوان الآن نمو سكاني ومبنى ضخمة ، ومن المحتمل ان تنمو حتى تتقابل او تتقارب يوما مع حدود كتلة القاهرة المبنية (؟) مثلما دخلت الآن أكثر من اى وقت مضى في فلكها الاقتصادي . واذا كان التوقع الصناعي هنا سليما من وجهة مناخ القاهرة ، فان مستقبل مدينة الاستشفاء والعيون يصعب التنبؤ به في قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة . ولكن المحقق على اية حال ان ليس ثمة مبرر جغرافي طاغ او واضح



لذلك التوقيع اصلا ، الا ان يكون القرب من مجمع العاصمة ، الامر الذى يعود بنا الى قضية اقراط المتروبوليتانية عموما

من وظائف الانتاج ندلف الى وظائف الخدمات ،  
وأولها التعليم . وللوظيفة التعليمية فى القاهرة دور خاص ان لم يكن فريدا حقا ، اذ ان جمهورها من الطلبة يقدر بنحو المليون أى خمس السكان ، ولا مفر لذلك من أن تبرز مؤسساتها بالحاح فى لاندسكيب المدينة . والقاعدة الاصولية ان هذه توزيعها الجغرافى يتناسب مع درجتها التعليمية ، بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكلا عنقوديا او شجريا او هرميا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها فى الاقليم . فمدارس الصغار - وهى اساسا خدمات جيرة - اشدها انتشارا وانتشارا ، وتوزيعها سبكنى بحث أى يرتبط بالاحياء السكنية . اما المدارس الثانوية فخدمات احياء أكثر منها خدمات جيرة ضيقة ، وهى لذلك أقل عددا ، وأكثر تباعدا ، ولكنها سكنية أيضا بالضرورة ..

واذا كان ثمة استثناء للقاعدة فهو الاستثناء الذى يؤكداه ، وهو التعليم الاجنبى . فمدارس الجاليات والارساليات الاجنبية كلها تتقاطر ( او كانت ) على قلب العاصمة التجارى ، فهى - كروادها - ادنى الى المسحة التجارية واشبه ان تكون عناصر مقتلعة ، مثال ذلك المدرسة اليونانية والالمانية والفرنسية قرب الفلكى ( وربما أضفنا تجاوزا الجامعة الامريكية غير بعيد ) ومدرسة الارسالية الامريكية قرب حديقة الازبكية . الخ

اما التعليم العالى فهو وحده الذى يبدى تركزا جغرافيا حاسما أولا ، وانفصالا مطلقا عن السكن

ثانياً ، وارتباطاً حتمياً بأطراف المدينة ثالثاً ، وبأطرافها الحديثة الراقية العصرية رابعاً . ذلك أن الجامعة تحتاج الى مساحات شاسعة - تتزايد أبداً - مثلما تحتاج الى الهدوء المطلق . وهذا يتجسم في ترامى جامعة القاهرة فى الجيزة الحديثة على مدى ما بين كوبرى الجامعة وكوبرى الجيزة وبعمق كبير ، ثم فى انتشار جامعة عين شمس من الزعفران الى العباسية . وكل منهما - يلاحظ - على ضلوع العاصمة غرباً وشرقاً ، كأنهما قطبان إلا أنهما قطبان متنافران موقعاً مع قطبى الصناعة فى الشمال والجنوب

وتمثل جامعة الأزهر توقيماً مختلفاً ، فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفى حوض الجبل من الشرق تواً ، ولكنها فى أقدم قطاع فى المدينة . ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية الى جانب نوعيتها الدينية . غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزاً عن التوسع المساحى فى وسط ذلك الحى الشعبى المكتظ ، الذى يضيق عليها أيضاً جواً وطابعاً خاصاً . ولهذا فقد بدأت أخيراً تتوسع بمعاهد ما ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيداً فى مدينة نصر

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه التاريخى فى الحركة من الجامعات الدينية القديمة الى الجامعات العلمانية الحديثة . فالانتقال الحضارى الذى حدث خلال القرن الاخير من التعليم الدينى التقليدى الى التعليم المدنى العصرى يلخصه ويرمز اليه الانتقال من جامعة الأزهر الى جامعة القاهرة ، من أقصى شرق المدينة المرتفعة البتيقة الفقيرة الى أقصى غربها السهل المحدث الغنى . وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينهما ، تتوسط

المدينة عبر هذا القوس جغرافيا واجتماعيا كما تتوسطه تعليميا ، وتمثل في مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالي والمعاهد المجاورة والمماثلة في منطقة المنيرة ، وذلك قبل ضمها اخيرا الى الجامعات الحديثة ، حركة بندول كاملة نحو التفريب حضارة ونحو الغرب موقعا ١

هذا ، ويختلف التعليم الفني في توقيعه ، فهو عادة — وبأنواعه المختلفة — يرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الاحياء المعنية . فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الاحياء الصناعية ، مثلما يتبلور في سلسلة مترابطة من المدارس الفنية الصناعية وورشها في بولاق ترسانة الصناعة التقليدية قديما ( مدارس الصناعات الزخرفية والميكانيكية سابقا ، ورشة القطن . . الخ ) . ويمكن في

معنى خاص ان نمد هذه القاعدة الى بعض مؤسسات التعليم الجامعي الطبي بحسبان المستشفيات الجامعية تعليميا وممارسة معا . فمن ادعى الظاهرات لغتا للنظر تلك الكوكبة العديدة والمتلاصقة من المستشفيات الجامعية لكلية الطب ومعامل الابحاث ، التي تتركز في شمال الروضة وعلى طول القصر العيني من كوبري النيل الى فم الخليج ، والتي تحدد قدرها فيما يبدو منذ بدا القصر العيني ايام كلوت . فهذه الدائرة الملمومة لا يمكن الا ان ترتبط في الدهن على الفور ، كما هي في الواقع ، بأكبر تجمع في الجمهورية للاطباء والعيادات الطبية في دائرة باب اللوق وما حولها ، وليس يفصل بينهما الا شارع القصر العيني نفسه

\*\*\*

ثم ننتقل الى وظيفة تعد — عكس التعليمية — مناقضة ومضادة للسكنية الى حد كبير ، وهي الصحية .

فالمستشفيات بمساحاتها الكبيرة وحاجتها الى الهدوء وبأخطار العدوى ، لا مكان لها وسط كتلة السكان عموما . وإذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية ، فالموقع السائد والمفضل غالبا والمحتم أحيانا هو الاطراف ، وربما الاطراف المنعزلة تماما ، وقد نضيف : فى منصرف الرياح كما فى العجوزة ومستشفاها العام الكبير ، وكما فى العباسية حيث مستعمرة كاملة من المستشفيات العقلية والحميات والصدرية فضلا عن كورنثينة بيطربة ومعمل السيرم ( قارن على العكس مستشفى الحميات فى شمال امبابة )

وترتبط المدافن ، من زاوية معينة ، بالوظيفة الصحية ، فتصدق شروطها على توقيعهما بصورة أشد صرامة . وجنوب شرق القاهرة فى منصرف الرياح ، عاليا على التل المكشوف ، بعيدا عن الطين فى الرمل الجاف ، منفصلا عن جسم المدينة ، هو مدينة الاموات . والواقع أن سلسلة الجبانات ، من الغفير شمالا حتى الامام الشافعى جنوبا ، تؤلف نطاقا متصلا تقريبا ينحصر بين نطاق المحاجر والجيارات شرقا وبين سلسلة التلوث المتقدمة غربا « قطع المرأة ، زينهم ، عين الصيرة » التى بدورها تشكل نطاقا متقطعا يعزلها ويعزله عن السكن

ومع ذلك ففى الامام الشافعى أخذ الحى يزحف على الميت ويكاد يطارده ، وتداخلت مدينة الاحياء مع مدينة الموتى بصورة قابضة للنفوس . وإذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التى تحمل أسماء وأرقاما ، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى ، فالطريف أن العزل فيها على الأساس الدينى والجنسى أكثر صرامة بكل تأكيد عنه فى مدينة الاحياء ، فلكل طائفة جباناتها الخاصة المطلقة

تبقى أخيرا بعض وظائف تتشابه مع الصححية في طبيعتها الهامشية ، الا أنها لا تبدو كذلك دائما في القاهرة . فالمؤسسات الترفيهية - الرياضية منها - كالملاعب والاندية الكبرى هي بطبيعتها مسرفة في حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء الطلق والاماكن المكشوفة ، ولان جمهورها - في ظل المستوى الحضارى والاجتماعى الراهن - ما زال محصورا غالبا فى الطبقات القادرة ، فهي تجنح عادة الى أن تقع فى القطاعات الراقية من الاطراف .

اعتبر مثلا نادى الصيد خلف الدقى ، والزمالك والترسانة فى مداخل العجوزة ، واستاد القاهرة فى مدينة نصر ، ثم نادى سباق الخيل والبولو فى مصر الجديدة . الخ

ولقد نظن أن هذا يصدق ايضا على نادى الجزيرة والاهلى اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبى ويمثلان معا اكبر رقعة رياضية متصلة فى العاصمة . ولكن الحقيقة أن هذا الموقع أقرب شىء الى قلب المدينة ، وموقعه هنا انما يمثل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجمود anachronism من وجهة ديناميات نمو المدن . وهذا نقد قد يثير حساسيات عاطفية عند الكثيرين ، ولكنه يفهم على ضوء الماضى . فقد أنشأ الاستعمار البريطانى هذه الحلبة لتكون حكرا ارسقراطيا له أولا ، وحين أنشأها فى العقود الاولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد بندر الجيزة ، وكان هذا الموقع هو بالفعل أطراف مدينة القاهرة الهامشية . ولكن نمو القاهرة عامة والضفة الغربية خاصة سرعان ما غمره فى مده واحتواء حتى أصبح الان قريبا جدا من قلب المدينة . وهناك أدلة متزايدة على أنه قد بدأ بالفعل يعرقل النمو الطبيعى لهذا القلب ، كما أن تلغق رواده عامل اضطراب موسمى خطير فى مواصلات

العاصمة . والاسوأ من هذا انه يعقم الاستغلال الأمثل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لا تقدر فى موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو . فكل أصابع التخطيط الرشيد تشير اليه اما كمطقة سكن راق أو كسكن تجارى عالمى ( فنادق سياحية الخ ) او كخليفة ومجمع للقاعات الدولية وصالات المؤتمرات والمعارض العالمية الخ . والمنطق التخطيطى يقضى بأن يهاجر الى الهوامش الجديدة ، مثلا كمطقة نادى الصيد . أما القول بأن هذا يحرم القاهرة من « رئة » طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان ، فليس ردا ، لأن النيل بشعبتيه هنا هو الرئة الطبيعية الكاملة ، والحاجة الى رئة انما تزداد كلما بعدنا عن النهر خاصة فى أعماق الضفة الشرقية المكتظة . ثم أن الزمالك والروضة مناطق مبنية ولم تخنق أحدا . وفوق هذا كله ، فما نعرف عاصمة كبرى فى العالم تتوسطها جزر نهرية دون أن تستغلها أكثف وأمثلة استغلال عمرانى : مثلا السيتى فى باريس ، مانهاتن فى نيويورك



مثل هذا او شيء منه يمكن ان يقال عن الوظيفة الحربية ومؤسساتها فى القاهرة ، فمنذ العصور الوسطى وطوال تاريخ القلعة مثلا ، وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة ( بشكنتها ومخازنها بل ومصانع سلاحها ) التى تقع كليسة خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية ، مصدر الخطر الخارجى الاساسى . ( على العكس من هذا تماما فى ظل الاستعمار ، كانت هذه المدينة العسكرية فى صميم قلب المدينة ، قصر النيل ، استجابة لا لاضراض الدفاع الخارجى ولكن لاضراض الاحتلال الداخلى ) وانتقال موقع وظيفة الدفاع من جنوب شرق القاهرة (القاعة) الى شمالها

الشرقي (العباسية - القبة) يرمز الى تطور الفن العسكري ولا شك أن الموقع الاخير ، الحالى ، هو عنق زجاجة القاهرة ومدخلها الاستراتيجى الاخطر . غير أن القصة هنا تكرر مشكلة تراجع المواقع الهامشية مع نمو المدينة ، فقد احتوى المد العمرانى المدينة العسكرية - على ترامى رقعتها - الى أن فقدت هامشيتها الشرطية بتجاوز العمران السكنى والمدنى لها شرقا نحو الصحراء . واذا كان هذا عنصر تعويق فى نمو المدينة ، فهو أشد تعويقا للوظيفة الحربية نفسها . ولقد نضجت المشكلة - التى واجهتها عواصم أخرى كثيرة - بما يسمح باعادة توقيعتها ونقلها الى الاطراف الجديدة

### الطبوغرافيا الاجتماعية

لا تنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية ، ان لم ترادفها تقريبا . والطبوغرافيا الاجتماعية - والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسى جاستون بارديه - هى أساسا التوزيع الجغرافى للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة . واذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوفييتية لا تعرف الا التباين الجغرافى على أساس الانتاج ، بينما تتجانس فيها الأحياء السكنية تماما ، فان طبوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وان كانت لمدينة عاصمة فى دولة تتحول الى الاشتراكية . فنحن هنا ازاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من الاقطاع والرأسمالية ، ولا مفر لنا لوقت طويل من أن نميز بين الأحياء السكنية على الأساس الطبقي اقتصاديا واجتماعيا . بل أن المسكن مازال هو التعبير المادى الاخير عن الطبقة ، والمنزل هو المنزل ، والمكان هو المكانة

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها ، بل والجنسية والطائفة أيضا ، أى الاقليات عموما ، وهذه لها مكانها في عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة ، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة . على أن من الواضح تماما أن وزن الجنسية والطائفة ثانوى وضئيل للغاية بالقياس الى الطبقة ، فهذه وحدها هى أهم المتغيرات وأبرز المعالم فى الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ الاف السنين . وهذا على العكس تماما من مدينة كالمدينة الامريكية تمتلئ أساسا ، كمدينة بلا تاريخ وكمدينة هجرة ، بالتنافر الانولوجى وتعدد الاجناس والقوميات ، ولاخذ فيها الجنس بعدا لا يقل خطرا عن الطبقة فى تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم ، يمكن أن نحصر الاحياء السكنية الفقيرة فى أقصى جنوب المدينة وأقصى شرقها ثم أقصى شمالها ، مع جزيرة كبيرة فى وسطها . أقصى الجنوب : فى أجزاء من الجزيرة البندر ، وأجزاء من مصر القديمة حتى السيدة زينب ، مرورا بأبو السعود والمدايغ والمذبح والبغالة . أقصى الشرق : من الخليفة حتى الحسينية ، مرورا بالقلعة والدرب الأحمر والجمالية . أقصى الشمال : فى اطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وما حولهما وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشمامشرجى ، ثم ازاءها فى أمبابة . أما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية . وثمة أحيانا جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية فى الضفة الغربية من القرى المتلعة كبولاق الدكرور أو مدن العمال مثل بين السرايات



هذه بوضوح هي اما احياء شعبية قديمة التاريخ ،  
والباني عتيقة الطرز ، بعضها متهالك او آيل للسقوط ،  
شوارعها بلا تخطيط او عشوائية الخطأ ، ترتفع فيها  
كثافة المساكن بفضل ازقتها وحواريها الضيقة ، كما  
ترتفع فيها كثافة السكان وحجم الاسرة . او هي احياء  
عمالية حديثة التاريخ ولكنها منخفضة المستوى ، وقد  
ترتبط ببعض البورجوازية الصغيرة من صفار الموظفين  
او الحرفيين . وأوضح من ذلك كله ان السكن يختلط  
فيها بدرجة او بأخرى بالصناعة والتجارة كما رأينا .  
وهي أخيراً وفي أغلبها ، ولكن ليس دائماً ، تقوم على  
الارض المرتفعة ذات الكنتورات العالية

وعلى طرف النقيض ، تتوزع الاحياء السكنية الفنية ،  
بدرجاتها المتفاوتة ، في معظم النطاق الاقرب الى النهر  
من الضفة الغربية شمال الجزيرة البندر ، ثم في الجزء  
الأكبر من جزيرة الروضة ، ثم في الجزيرة ( الزمالك ) ،  
ثم نعبّر الى جاردن سيتي وقصر الدوبارة ، لنقف بعدها  
بعيدا الى مصر الجديدة وأجزاء كثيرة من الشمال  
الشرقي ابتداء من القبة . وأبرز ما يجمع بين هـيـئـة  
الاحياء جغرافيا انها باستثناء مصر الجديدة وما حولها  
تقع في الاراضي المنخفضة على جبهة النيل

وفي العام الاغلب تقتصر هذه الاحياء على السكن ،  
فان غزرتها وظائف أخرى فبعض المؤسسات الادارية  
كالوزارات او المصالح ، ولكن بوجه اخص البعثات  
الدبلوماسية ، فهذه تتقاطر على احياء السكن الراقى ،  
فتجد أغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعيش  
في جاردن سيتي وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقي وحديثا  
وأخيرا المعجزة . على أن السفارات والهيئات

الديبلوماسية اذا عدت دليلا على السكن الراقى ، فهذا يقتصر على الاحياء السكنية القريبة من قلب البلد نسبيا ، اما المتطوحة منها فتخلو منها ، كمصر الجديدة .

اما اللاندسكيپ المدنى السائد هنا فهو العمارات العالية وأحيانا الناطحات الصغيرة ، ودائما في عمارة عصرية حديثة . أما الفيلاات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة اراضى البناء على الارض السوداء حيث لا بد من الحد الاقصى من الاستغلال بالكثافة الراسية . وهنا نستطيع أن نرى كيف أن « جاردن سيتى » مثلا اسم على غير مسمى ، بل وسخرية من فكرة « الجاردن سيتى » المعروفة في أوربا منذ هوارد ، فهي غابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيلاات في بحر من الحدائق . ولكن الفيلا تعود فتسود على الرمل في مصر الجديدة وضواحي الشمال الشرقى حيث تملك ترف الانسياح الافقى

أما السكان ، فهذه هي المحل المختار للطبقات الموجهة والمسيطرة والاكثر دخولا وترفيا وترفا . وقد حدثت هنا منذ الثورة عملية « تنابع سكنى » تغير فيها نوع السكان . فقد كانت هذه هي المواطن المفضلة لسكنى الاقليات الاوربية الاستعمارية ، مثلما كانت المقصر الطبيعى للاسر الاقطاعية والراسمالية والصناعيين من الوطنيين . ومع تصفية هذا وذاك ، حلت بالتدريج صفوف من الطبقة الوسطى العليا والثقافة الوطنية ، مما بدأ يخفف نوعا من حدة تضاريس الطبوغرافيا الاجتماعية في العاصمة

فيما بين النقيضين ، الاحياء الرقيقة الحال والغنية ، تنتشر أو تنحشر الاحياء المتوسطة التى يتفق انهمسا متوسطة في الموقع الجغرافى مثلما هي في الموقع الاجتماعى

والتي تتألف غالبا من الطبقات الوسطى المعتدلة او العادية من الموظفين والمتقنين أو التجار . فعدا الجانب الخلفى من الضفة الغربية ، تغلب فى قم الخليج وتسود فى المنيرة وكل ما حولها وخلفها حتى حدود الاحياء المتواضعة فى شرق المدينة ، ثم تغلب على كل النطاق العرضى الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكينى حتى الوايلى والعباسية ثم فى قطاعات كبيرة من ضواحي الشمال الشرقى . هذا عدا القطاع الاكبر والجنوبى من شبرا وروض الفرج . ومن الملاحظ أن خطوط السكك الحديدية داخل المدينة ، قومية كانت أو ضواحي ، تخرق عادة هذه المناطق السكنية المتوسطة ( أو الفقيرة ) حيث تخلق على طولها مناطق موبوءة وتخفص قيمتها الاجتماعية

ماذا تعنى هذه الخريطة الاجتماعية ، وهل من مفزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث ؟

لعل أبرز ما يلاحظ هو أن مبدأ الفصل السكنى سائد بعامه ، بمعنى أن لكل طبقة منطقة ، ولكل منطقة طبقة . وأهم من ذلك أن الفصل السكنى سلمى ، بمعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى كما تتدرج فى السلم الاجتماعى . ويتفسير أوضح فإن منطقتى الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقين ، بل الأغلب أن تندفع بينهما منطقة طبقة وسطى تفصل بينهما كما فى منتصف المدينة على محور جاردن سيتى - المنيرة - القلعة

وقد تتقارب أو تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة ، بل أن هذا أحيانا نطلب لأن القوة الضخمة العاملة فى الخدمة الشخصية والمنزلية فى أحدهما تستمد من

الآخري ، ولكن لابد حينئذ من حاجز طبيعي فاصل ، كالنيل بين الرماك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعى ويصل الى قمته ، وحيث تصل المسافة الاجتماعية الى اقصاها والمسافة الجغرافية الى ادناها ، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى أكثر اعتدالا ..

أما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة، فيمكن ان نتساءل أولا عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة . ففي كثير من المدن الاوربية والأمريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياسا طرديا للمستوى الاجتماعى والانتماء الطبقي ، كلما زادت ارتفع ، والعكس . ولكن القاهرة لا تحقق هذه القاعدة الا جزئيا ( مصر الجديدة ، المعادى ، وكل ضاحية منفصلة أو شبه منفصلة ) ، وتعارضها أكثر ( جاردن سيتي ، والزمالك من ناحية ، وامبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية أخرى )

فإذا بحثنا عن احتمال آخر ، كالارض العالية والمنخفضة في المدن الغربية الباردة ، حيث الارض المنخفضة مصائد للضباب والرطوبة ، والارض العالية صحية جافة ومشرقة ، وحيث - بالتالى - « العالى اجتماعيا هو العالى جغرافيا ، والواطى اجتماعيا هو الواطى جغرافيا » ، وجدنا أنفسنا في القاهرة أزاء قلب رئيسى وان يكن غير كامل للقاعدة . فشرق المدينة الاعلى تضاريسيا يحمل الاحياء الرقيقة الحال والعمالية والشعبية ، بينما غرب المدينة المنخفض على النيل وفي جزره وعلى ضفته الغربية يحتشد السكن الغنى . ولكن يعود فيشد قطاع كبير في بولاق والشمال

( شبرا الخيمة وما حولها وامبابة ) فهذه كلها ارض منخفضة واحياء متواضعة

هل هو اذن ضبط الرياح السائدة ؟ فقد لوحظ في الغرب ان السكن الراقى يسعى الى ان يحتكر غرب المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة ، طازجة غير ملوثة . وفي مصر الحارة ، فليس ثمة شك ان الرياح البحرية السائدة مرغوبة جدا وان لها ثمنا يدفع في قيم الارض او الايجار ، وان المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة تنجذب احيائها السكنية الراقية الى الشمال كما تنجذب البوصلة المغنطيسية . ولكننا في القاهرة تصطدم بشبرا الصناعية وامبابة واحيائها المتواضعة في اقصى الشمال ، وان كانت مصر الجديدة وضواحي الشمال الشرقى مكشوفة للرياح « البحرى » منطقة بلا عائق

لا يبقى الا ان تكون جاذبية النهر ، فللجهة المائية المنعشة في مناخ حار ، فضلا عن المنظر الطبيعى في اللاندسكيب ، مغنطيسية لا مفر منها على السكن الراقى ، ومن الواضح ان هذا يمثل جسرا كبيرا من الحقيقة في القاهرة : اعتبر معظم الضفة الغربية ، ثم الجزيرتين ، فجاردن سيتى ، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة ، حيث تقع بولاق وامبابة على النهر بينما تقع مصر الجديدة ابعد ما تكون عنه . على ان هذا لا يتقل من أهمية عامل الجهة المائية ، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة ، راقية كانت او متوسطة ، يطل على النهر عادة افضل المساكن وتتل درجتها كلما بعدنا عنه . . وفي الضفة الشرقية مثلا ينخفض مستوى السكن كلما بعدنا عن النيل في انحدار مستمر من الراقى الى المتوسط الى الفقير ، ولا نقول الى سكن الموتى في اقصى الشرق !

والخلاصة الصافية ؟ لاشك ان كل هذه العوامل تعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئيا ، وليس فيها مفتاح احادى . والسبب ان القاهرة مدينة معقدة مركبة بحكم تاريخها الطويل وتنوع ارضيتها كموضع ما بين الجبل والنهر وما بين الصحراء والوادي . ولكن من الممكن ان نقول ان ضابط الجبهة المائية فيها اقوى بعامة من عامل الريح البحرية ، وهذا بدوره اقوى من عامل التضاريس

ذلك اذن وجه المجتمع القاهري في بيئته الجغرافي او بيئته الطبيعية . غير انه ان حددت الطبقة ملامحه الاساسية ، فان الاقليات تكملها بلمسات نهائية ترصع صفحته دون ان تخرج عن الفرشة القاعدية . ولقد حدثت تغييرات هامة في العقد الاخير في حجم وتوزيع الاقليات الاجنبية والجاليات الاوربية نتيجة « للخروج الابيض » مع التحرير ، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشرات من الالاف ، وان قد كانت دائما اقل منها في الاسكندرية بالذات

ففي مرحلة الازج في الثلاثينات والاربعينات ، كانت أبرز حقيقة عن توزيع الاوربيين في القاهرة تجمعهم في النصف الشمالى منها ، او بالاحرى غيرهم تماما من النصف الجنوبى . وفي النصف الشمالى كان توزيعهم اقرب الى قلب المدينة ، وكان مركز الثقل في جاردن سيتى وقصر الدوبارة وفي الاسماعيلية والتوفيقية ، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان في كثير من الشياخات . وحول هاتين النواطين ، وعدا الزمالك ، كانت تجمعاتهم تستمر متصلة ابتداء من الفرنساوى حتى باب اللوق ومن غمرة حتى شبرا ، وفي كثير من شياخات هذه الحلقة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان

واهم معانى هذا التوزيع هى ، أولا ، ميل طبيعى للاقليات والجماليات الاجنبية الى التجمع وعدم الانتشار تناماً بين الوطنيين . ثانياً ، انجذاب ( غير مألون عند الوطنيين ) لسكنه منطقى للإجانب ( نحو قلب المدينة التجارى حيث يربطون بين العمل والسكن او حيث يظهر السكن التجارى ( الفنادق والبنسيونات الخ ) . ثالثاً ، يتبع توزيع الاقليات الاجنبية الاطار الطبقي العام . فكانت العناصر الأكثر غنى ونفوذاً منهم ترتبط بالاحياء السكنية الراقية كجاردن سيتى والزمالك ، والعناصر الأقل مكانة بالاحياء البورجوازية المتوسطة ، ولكنها فى جميع الحالات كانت بعيدة تماماً عن الاحياء الوطنية الفقيرة . رابعاً ، ارتبطت بعض الجماليات ببعض المناطق تقليدياً او بصفة خاصة : الانجليز بجاردن سيتى والزمالك هذا المعادى المنفصلة ، واليونانيون والطلليان واللغاتيون بمدخل شبرا تجاه المحطة ( الشوام فى قصورة الشوام خاصة )

خامساً ، واخيراً ، فرغم بعض ملامح الانعزال النسبى من الوطنيين ، فلا مجال قط للحديث عن عزل سكنى صارم بالمعنى المعروف فى العواصم الاستعمارية فى افريقيا او اسيا . بل ان بعضاً من العناصر الأقل ثراءً من الاوربيين اندمج تماماً فى كتلة السكن الوطنى ، ومن الناحية الاخرى لم تظهر قط مدينة اوربية مقفلة بالمعنى الاستعمارى ، وحتى الانجليز رغم السيطرة الاستعمارية وتقاسيد العنجهية الانجلوسكسونية تحايّلوا على العزل السكنى المنع من خلال الانفصال الجغرافى الطبيعى حين نموا لانفسهم ضاحية المعادى ولكنهم فشلوا ، وغزتها العناصر الوطنية . وهذا كله يذهب ليقول ان الفارق الحضارى والجنسى بين الاوربيين والمصريين كان دائماً على غير ما عرف

الاستعمار في كثير من بلاد العالم الثالث ، وانه مجز عن  
أن يخلق في مصر أى شبهة من « حاجز نونى » ما

اما من الناحية الدينية ، فقد كانت هذه الجاليات  
الاوربية ذات التركزات غير العادية في قلب المدينة او قربه  
تتحذ مؤسساتها الدينية في ذلك اقلب التجارى او قريبا  
منه ، وذلك بصورة شاذة غير مالوفة ، وليس في الاحياء  
السكنية كما هى القاعدة في مؤسسات الديانات الوطنية .  
وحتى بعد تصفية هذه الاقليات والجاليات ، فما زالت  
مؤسساتهم تحتشد في ذلك الوسط التجارى : مثلاً  
كاتدرائية الاجليز بماسبرو ، كاتدرائية سان جوزيف بعماد  
الدين ، عديد الكنائس في باب اللوق والفكى وكنيس  
الاسرائيليين في شارع عدلى . . الخ

### هيكل العاصمة : اقاليم القاهرة الكبرى

من المسلم به ان القاهرة ، بتاريخها الالفى العريق ،  
مدينة ناضجة مورفولوجيا من وجهة جغرافية المدن ،  
بمعنى انها مرت بمراحل وادوار عديدة من التجربة  
والخطأ ، واعادة التجربة والتصحيح ، حتى استقرت  
واستوت خططها وبنيتها العامة على انسب تنضيد وترتيب  
ممكن لبيتها من الداخل

ومن هذه الزاوية ، فالمفروض ان تكشف القاهرة  
لدارسها بسهولة عن هيكلها الاساسى وعن الخطوط  
العريضة في مورفولوجيتها . غير ان الواقع ان القاهرة  
مدينة معتدة نوعا من حيث الموضع الجغرافى الذى  
يحتويها . فاختناقها بتلال المقطم في الشرق منع بصرامة



نوسعها في هذا الجانب وفرض على نموها اتجاها أحاديا  
او قل نصفيا نحو الشمال والغرب او الشمال الغربى ،  
وبذلك حد من حريتها في الانطلاق نحو النمط الدائرى  
وحصرها في نمط مروحي بالتقريب

ونقول النمط الدائرى لانه « باستثناءات ليست قليلة  
الاهمية ومع تحفظات معينة ، فان المدينة اى مدينة حين  
تترك لنفسها في بيئة جغرافية سهلية تخلو من العقبات  
الطبيعية فانها في الاعم الاغلب تميل بالنظرية الى أن  
تنمو حول قلبها ، كجدوع الاشجار ، على شكل حلقات  
متتسابة نحو الاطراف ، وتكتسب محيطا دائريا او  
شبه ذلك . والسؤال هو : ما النمط « ما المنطق البنائى  
القائد او الحاكم الذى يمكن أن نستشفه من خلال وجه  
القاهرة بعلامحه وعناصره ووظائفه ودينامياته التى  
طالعنا وحللنا ؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القاعدة  
الذى ارتكزت عليه القاهرة في نموها ، وبينما لم يعد  
اجتيازها للنيل عقبة على الاطلاق ، على الاقل منذ القرن  
الماضى ، فقد ظل محور المقطم منذ البداية الى اليوم  
عقبة طبيعية صارمة . ومن الناحية التاريخية ، وعبر  
العصور الوسطى ، فان احضان المقطم المباشرة التى  
نشأت فيها هى بطبيعة الحال « النواة النووية » للمدينة  
مثلما كانت قلبها المركزى في مراحل طويلة من حياتها

وقد كان نمط توزيع الوظائف والمباني والسكان فى  
مدن العصور الوسطى « خاصة الاسلامية منها ، بسيطا  
فى جوهره يتركز - كما يلح علينا ديكسون - حول  
السلطان : فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به  
قصور الامراء والكبراء ثم التجار ثم اعمامة وصغار

الناس حتى اذا وصلنا الى هوامش المدينة ساد الزراع  
العاملون في حقول المدينة وأرباضها

وشئ من هذا توحى به القاهرة العربية الاسلامية .  
فدائما منذ الفتح العربي وقبل ان تبنى القلعة في الايوبية  
ولكن بعدها بصورة اقطع ، كان مقر الحكم لصيقا او يكاد  
يسفوح المقطم في الشرق ، ومن حوله كانت تترى احياء  
الاعوان والمقربين واهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين  
ثم العامة ، بينما كانت بطائح وشطوط النيل التي ترصعها  
المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة  
الى اخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة ، وأحيانا  
ملاعب ومتنزهات ... الخ

وقد يمكن ان تعبر عن هذا فنيا بأن نقول ان نمط  
القاهرة العربية المورفولوجي كان حلقيا وانما بالتقريب  
على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم . وربما  
اضفنا ان الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر - مع  
كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع - بهيكل مدينة  
شيكاغو المشهور في دراسات المدن ، حيث يتركز القلب  
على جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة  
الحلقية من الداخل نظاما نصفيا وليس دائريا كاملا

ولكن القاهرة اليوم اشد ماتكون تعقيدا بالمقارنة .  
فمنذ القرن الماضي أخذت المدينة تهجر ظلال المقطم  
وتزحف نحو النيل ، وأخذ كثير من أجهزتها ومؤسساتها  
وظائفها الحيوية تصرف بالتدرج من قلبها القديم في  
شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب . ولقد  
بدأت هذه الاعراض مع محمد علي ، ولكنها تسارعت  
بعده منذ اسماعيل خاصة ، ولم تكف منذئذ حتى الان .  
مقر الحكم ، مثلا ، كان القلعة أيام محمد علي ، ولكنه

هو نفسه بدأ بشتل وزرع أجهزة ادارة جديدة وعديدة  
في منطقة الازبكية ، الى ان نقل اسماعيل الحكم فيها  
نهائيا الى عابدين . هذا مجرد مثال دال ، ولكن كل  
تاريخ القاهرة الحديثة انما هو عمليتان ايكولوجيتان  
رئيسيتان : من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب ،  
واعادة توزيع وترتيب لاجهزتها وانسجتها وأعضائها  
وظائفها واستعمالات الارض فيها من الداخل

ولاشك ان أبرز المظاهر المؤثرة والملموسة لديناميكا  
القاهرة ، كما تنبثق من تفاعل هاتين العمليتين ، هي  
هجرة القلب التجارى المركزى . وهى نتيجة حتمية .  
فقلب أى مدينة هو فى الحقيقة « عاصمتها » ، هو فى  
المدينة كالعاصمة فى الدولة تماما . وكما ان هناك علاقة  
ايقاع غير منظورة ولكنها محققة بين حدود الدولة  
السياسية وبين العاصمة السياسية ، ينبضان معا  
ويتأرجحان معا ، فذلك قلب المدينة : يرتبط وقيقا  
ويتذبذب حثيثا مع حدود المنطقة المبنية ، كلما اتسعت  
حدود هذه ، كلما تحتم على القلب ان يتحرك معها  
ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطه . هكذا القاهرة : كما  
نمت حدودها نحو الشمال والغرب أساسا ، نحو  
الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها

ومن السهل ربما ان نتتبع حركة القلب التاريخية هذه  
من الازهر والموسكى فى مطالع القرن ، الى العتبة والازبكية  
بعد ذلك ، الى الاسماعيلية خلال فترة الحرب الثانية  
وما قبلها . وبمزيد من التحديد فقد كان كيرجيه فى  
الثلاثينات يعد عين قلب القاهرة التجارى النابض حول  
شارع عماد الدين . ومنذ ما بعد الحرب وصلت الحركة  
الى نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليو وطلعت حرب ( فؤاد

وسليمان سابقا ) ، ومن بعدها انحدر الزحف على طول شارع طعت حرب وقصر النيل وتجاه ميدان التحرير حتى شارفه ، وحتى أصبح هذا من مرانز قلب القاهرة وقطب الجاذبية فيها ، حيث أخذت المؤسسات والاعهزه والهينات المختلفة من تجارية ومراكز خدمات وإدارات وشركات وفنادق كبرى تتقاطر حوله ، وأخذ هو يكتسب صبغة أكثر وأكثر تجارية وحركية

وكمقياس اختبار أو كرموز لهذه الحركة ، اعتبر هجرة فندق شبرد من الأزبكية ، والجامعة العربية من الداخل ، الى النيل ، ثم قيام الهيلتون ، ولا تنسى قيام المجموع قبل الجميع . كذلك لاحظ زحف وانتعد منطعه الاضواء ( المسارح ودور السينما Bright Light Area ) والنهو وشرقة المقاهى والطاعم الكثيفة التى تغلفها . الخ من شارع عماد الدين فى الثلاثينات الى شارع طلعت حرب الان . . .

لقد تمت دورة بندول كاملة فى حياة المدينة وقلبها ، انتقل فيها من سناد الجبل الى شاطئ النهر ، ومن ضلوع المقطم الى ضفاف النيل ، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة الى قلب تحولت مدينته من مدينة اكروبوليس الى مدينة فيضية ، ومن موضع منحدر تلى الى موضع يمتطى نهرا ويضع قدما فى ضفه وقدماء فى الاخرى حتى أصبح هذا هو محور المدينة الجديد

ولاشك ان هذا الزحف الهادف انما يتم فى جزء كبير منه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمرانى الضخم ، والمتفجر أخيرا ، على الضفة الغربية بالدات وحيث ينتظر المزيد من النمو والانسياح . وهو ايضا يحقق النظرية الاصولية من ان القلب يزحف نحو الاحياء السكانية

الرائية . كذلك فانه يدل على ان القلب برقعته المزدحمة الحالية بدأ يكتظ . ويضيق بمؤسساته وأجهزته الكثيفة والمكدسة ، بمثل ما ان بعض هذه المؤسسات بدأت هي الاخرى تضيق وتضيق بضغطه وتسمى الى اطرافه الاكثر هدوءا والتساعا لافراضها . خذ مثلا دور الصحافة الكبرى في القاهرة : تجد منذ مدة هذا الاتجاه الى الابتعاد عن عين القلب الى هوامشه ، ابتداء من قيام دار اخبار اليوم في شارع الصحافة ، الى انتقال الاهرام اخيرا جدا الى شارع الجلاء . ومن قبل يلاحظ الموقع الهامشي من القلب في بقية دور الصحف : الجمهورية تجاه الازبكية ، الشعب في القصر العيني ، الهلال في المبتديان .. الخ . كذلك مرافق الادارة المركزية ، لم يعد القلب الادارى يتسع للمزيد منها وبدأ يلفظ نموه بعيدا ، وأحيانا خارج القلب تماما ، كوزارة الزراعة بالدقى من قبل ووزارة الاصلاح الزراعى من بعد ، وكعدد اخر من الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية

هذا ، واذا كان لنا أن نحدث المستقبل من مؤشرات الحاضر ، فان ضغط القلب من أجل المكان سيفرض نفسه قريبا حين يصطدم بالنيل ومن ورائه خاصية ملاعب الجزيرة التى هى حقيقة استغلال سييء ومسرف لموقع محورى والتى قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعى ، ولكنه صراع وظيفى لا يمكن ان تكون الغلبة فيه الا للقلب فى النهاية . وقد لا يكون قيام فندق عالمى تجارى ضخم — شيراتون او سفنكس ( ؟ ) — على رأس الدقى السكنى فى قفزة ضخمومية ضخمة وشاذة ، بلا مغزى ودلالة على هذا الاحباط الذى تفرضه تلك الملاعب مؤقتا

كذلك فان كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة ، التى تبدو اليوم ناضجة تماما لجراحة كبرى فى ازالة العشش،

هي بالقوة الاحتياطي والرصيد الطبيعي لتوسع القلب في بعض جوانبه في المستقبل . وهي قد بدأت بالفعل تتلقى أو تستشعر وقع بعض فروعه وامتداداته على طول كورنيش النيل في ماسبرو ( مبنى الاذاعة والتليفزيون مثلا .. الخ )

هذا عن حركة القلب غربا ، والمهم والسؤال الان :  
ما الذي حدث للمنطقة التي هاجر وانحسر عنها القلب بالتدريج ؟ انها ببساطة - ولكن ببساطة ، اذ ان المقاومة تستمر عقودا - تفقد بالتدريج أجهزة وعناصر التجارة والنشاط التجاري التي هي مقومات القلب وصفته الاساسية . فالقلة من محلاتها ومؤسساتها الاكثر طموحا والاقدر على التكيف الحديث تغادره الى القلب الجديد كلية او قد تتخذ لنفسها فيه فروعا عصرية ، والكثرة تذوى وتذبل بالتدريج ويتضائل روادها ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتمادا على ولاء جمهور واسع الدائرة ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات ، وقد تتحول الى مخازن وموردين للجملة او متاجر محلية للحى او حتى للجميرة ، وفي نهاية الدورة قد تصفى اعمالها فاذا بمبانيها ومنشأتها تتحول الى استعمالات جديدة ، سكنية اساسا ، او قد تعدل لتستقبل ورشا صناعية صغيرة لبعض الحرفيين او الموكنين .. الخ . وبعبارة اخرى ، تتحول المنطقة التي تراجع عنها القلب القديم الى مجرد اطراف وهوامش او رقع من جسم المدينة العادى بحلقائه الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية او الحلقة الداخلية كما تسمى

وعلى الفور فان هذه العملية تضع ايدنا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة ،

وتعد قلبا للعملية الشائعة في ديناميكيات ونمو اقاليم وحلقات المدينة الداخلية . فالتقاعدة مع نمو المدينة أن يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به ، فتتحول وظائفها من تخطيط من السكن والصناعة الخفيفة عادة الى التجارة ، ولكن التحول هنا في المناطق الشرقية من القاهرة والتي كانت القلب القديم ، تم على العكس بتراجع وانحسار القلب ، وبالتحول من التجارة الى السكن المختلط بالصناعة

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنا تكون ضيقة مختنقة نوعا وربما غير مكتملة الخصائص والمعالج في هذه القطاعات ، خاصة اذا ما قورنت بمثيلاتها على الجوانب وفي القطاعات الاخرى من المدينة ، ولا تتسع الا مع وبقدر المزيد من تراجع القلب وانحساره عنها . والنتيجة الصافية أن مورفولوجية حلقات المدينة الداخلية التي كانت في العصور الوسطى تصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائري بصورة عامة ، الا أنه هنا منبعج مختنق في شكل مروحي

هذه العملية كلها لا شك بدأت في القرن الماضي حين أخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضاري الجديد ، ولا جدال أنها ظلت تشتد مع شدتها ، ولكننا لا نستطيع أن نتبعها بالعين المجردة الا في الاجيال والعقود الاخيرة حيث دخلت مرحلة النضج . هذا ويلاحظ في تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضاربات والنشاطات المالية الاستعمارية ، والجاليات الاوربية على اقتصاديات المدينة قبل التحرير ، وخاصة في القاهرة ما بين الحربين ، اعطت منافسة خطيرة وقاتلة لمشروعات وأعمال ومتاجر البورجوازية الوطنية المتوسطة

والصغيرة ، مثلما نشرت تطلعات الاوربة والتغريب بين الجماهير ... الخ

وهذا كله اتى لحساب القلب العصرى « الاوربى » الحديث ، وعلى حساب القلب التقليدى الآفل ، وساعد على تصفيته وذبوله بالتلذيج . والكثيرون ما زالوا يذكرون أو لا شك سيتذكرون حالات افلاس كثير من محلات الموسيقى والازهر ... الخ فى تلك الفترة . أما اكتمال الهجرة من القلب القديم الى الحديث فيرمز اليه ببلاغة تحول مركز الثقل والاهمية من شارع الموسيقى الى شارع طلعت حرب ، ومن ميدان العتبة الى ميدان التحرير . وقد يمكن أن نعتبر العتبة هى الحد الفاصل اليوم بالتقريب بين القديم والحديث فى قلب القاهرة التجارى . وفى الوقت الحالى ، أصبح القلب القديم - الموسيقى والازهر والغورية ... الخ - يلعب فى كيان المدينة دورا أقل حيوية وثقلا مما كان فى الماضى ، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الاخير للقديم فى كل شىء ..

وعلى الفور ، لن يخطئ احد ان ها هنا ثنائية أساسية فى قلب العاصمة التجارى : قلب جديد نابض متنام ، عصرى حديث الطراز ، فى الغرب ، وقلب قديم عتيق الطراز ، آفل وفى اتكماش مطرد ، فى الشرق . وهذه الثنائية ، التى يعرفها قلب كل مدينة هامة فى العالم الثالث ، تلخص وترمز الى الثنائية الحضارية القاعدية التى تميز هذا العالم الثالث منذ عصر الاستعمار الاوربى والاحتكاك الحضارى مع الغرب . ومن الطريف فى القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بين الموقع الجغرافى والموقع الحضارى داخل هذه الثنائية : فالقلب الشرقى القديم



فى الشرق ، والغربى الحديث فى الغرب ! على أن هذه  
الشائبة مرحلية فى جوهرها وان طال الامد ، ولنا أن  
نتوقع ، ولكن ليس قبل عقود على الأقل ، أن يدوب  
القلب القديم فى الجديد فى نهاية المطاف مع اكتمال  
التحول الحضارى والتقدم المادى

وهنا وفى النهاية تفرض نفسها مقابلة لها مفراها  
وطرافتها ، وذلك ما بين هذه الشائبة الحضارية  
وما رايناه من قبل من تجانس بشرى فى السكان .  
فلذا كان قلب القاهرة يلخص التنافر الحضارى ، فان  
تركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشرى . وهذا  
وذاك على العكس تماما من المدينة الامريكية ؛ تنافر  
جنسى وبشرى حاد وصارخ ، وتجانس حضارى الى  
درجة التعميط الملل وبما . ولعلنا لا نغالى اذا قلنا فى  
هذا الصدد أن القاهرة أقدم عواصم العالم القديم ترمز  
له وتلخصه مثلما ترمز للعالم الجديد وتلخصه مدينة من  
أحدث عواصمه كواشنطن أو نيويورك . . .

## الفصل الأول

### القاهرة .. بنت الصحراء

القاهرة ، أكبر المدن الصحراوية ( ٤١٤ كيلو مترا مربعا ، ٣٣٤٨٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى ) لها لون صحراوى ، والذي شاهدها هو ايمان ربيب الصحراء ، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات يبدأ من البحر الابيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط يبداء متموجة غير مقببة الى ان يتصاعد خلف الاهرامات ليهوى الى واحة الوادى ، فيتراقص على مساره من ثفت عاصمة كبيرة اطراف الوان ما بين الرمادى والبني ، حتى الطائرات فانها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها الى ممر الهبوط فوق كثنان من الرمال الجرداء

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التى تشبثت بحضنها ، فالاهرامات الالعائب التى اقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملى جرى نحتها أولا من تلال المقطم ثم دفع بها الى الغرب طوفا على الماء عبر الوادى اذ النيل فى عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم ، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد فى عمارة الامراء المسلمين للمساجد والقصور

اما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة الى صحراء

النسيان ، فقاعة الذهب التى كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشحها من خيوط الذهب قد اندثرت هى والحجرات الاربعية الالاف التى كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذى كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن اشارته ، وكذلك لم يبق اثر لبهو الزبرجد فى الديوان الكبير ، وتلال المقطم التى جاءت منها الاهرامات والتى تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر اول تحية لها على ابي الهول فى الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة كأنها تهويمات لم تتم من وحي أسطورة قوطية

ان الصحراء تغزو المدينة سواء فى ذلك طرقاتها الفسيحة أو الأزقة المتعرجة فى الاحياء القديمة ، وتهب رياح الخماسين من ليبيا فى شهر مايو تحمل معها ترابا ناعما يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفى على المدينة - زرعها وأبنيتها - كساء من مسحوق رمادى . أن اهداب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب ، لا مجرد زينة ..

ومباهج القاهرة - شأنها شأن مباهج الصحراء - تزداد جلاء لأنها فوق لوحة متربة . عديدة محال يبيع عصير المانجو وقصب السكر لأزواء الحلق الجافة من العطش الشديد . وفى أركان معتمة رثة الحظ تتألق زهور بالوان متوهجة . وحينما تغيب الشمس أخيرا بعد نهار قاتظ من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض الطرقات رائحة فريدة هى خليط من أنفاس الفيل والياسمين وزخمة وحوش الفلا

والصحراء ، كالبحر ، هيهات أن يقال عنها خلاء محصن ، بل أنها ملتقى قوى عديدة ، وكما ربط البحر ما بين الجزر

اليونانية في العهد الخوالي ، فان الصحراء ربطت بين البعيد والبعيد من اقطار الشرق الاوسط ، وقد وفد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التاريخ ، فهي وان اتخذت اسما عربيا فقد حظى موقعها باهتمام كبير من قبل ان ينتشر العرب من جزيرتهم بزمن طويل ، فعند هذا الموقع الذى يزداد فيه النيل رحابة ليضم بين ذراعيه ارض الدلتا ، وهى على شكل مروحة ، اقام الفراعنة عاصمتهم منف ( وهذا الهرم المدرج فى سقاره ، وهو اقدم بناء من الحجر فى العالم كله . لا يزال يطل على مقابر منف ، تراه بالعين المجردة من أعلى العمارات فى القاهرة ) وقد اقام الفراعنة أهم مقابرهم فوق هضبة الجزيرة ، لا تبعد عن قلب القاهرة - ميدان التحرير - إلا مسافة ٤ دقيقة بالاتوبيس رقم ٨ . ومدينة عين شمس - هليوبوليس الآن ويربطها بالقاهرة قطار المترو - كانت لها سمعة عالمية فى العلوم ، ولكنها فضل على هيرودوث وافلاطون . وقد اطلق اسم عين شمس على واحدة من جامعات مصر الاربعة

واشد زائرى القاهرة تأثرا عليها لم ياتوا ببضاعة التجارة ، بل بأفكار دينية ، فالقاهرة اليوم - شأنها فى ذلك شأن مدن كثيرة - وليدة أحدث موجة من سلسلة امواج المد البشرى ، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الاديان . فقد اقام العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بنى اسرائيل ) فى شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم فى صناعة الطوب ، ثم استوطنت جاليات يهودية - قبل ميلاد المسيح بعدة قرون - على ضفاف النيل ، وكان اكبر مراكزهم فى الاسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربى ، حيث شرح افلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلسفة

اليونانية ، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن « اللوجوس » أو « الكلمة » في شرح عقيدة التجسد الالهى ، ولسكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابلون في مصر - وهى مكان القاهرة اليوم - ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هرباً من طغيان هيرودس . ولا يزال الرهبان الاقباط يقودون زوار كنيسة أبو سرجة لمشاهدة قبو رطب حيث نام « اللوجوس » وحراسه . وبالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة ثمينة من التوراة

ولكن لا الكنائس ولا الكنيستات تغلب على أفق القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية . انها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى . هى عند المسلمين لا تقل جلالاً عن مكة ، التى تتجه اليها قبله الصلاة فى مساجد القاهرة ، ولا عن المدينة مثنوى الرسول . واذا كان الافق من حول القاهرة قد ارتسمت عليه منذ سنة ١٩٥٢ ظلال ناطحات السحاب وصروح أخرى هندسية ، فان العين لا تلحظ على هذا الافق اذا ترامت نظرتها فوق الاسطح الغبراء الا المآذن المشربة للسماء ، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات فى اليوم

وللقاهرة - لانها مدينة صحراوية - ثروة نباتية تنفرد بها : زهور لا تنمو فى الشمال الا داخل بيوت من الزجاج وأشجار تضى زينتاً على ما حولها من قتامة ، اشجار الكافور التى تخشخش أوراقها الرقيقة ، اشجار السنط التى لا ترهب الجفاف ، اشجار الجميز ، اشجار التين البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبئ منها جذور اشجار جديدة معتمة ، ثم النخلة التى جعل القرآن ولادة المسيح تحتها . واذا كانت السماء لا تمطر

الا نادرا فان اللون الاخضر يشوبه على الدوام صنفرة  
مغبرة ..

ولكن دع عنك النبات والحجر ، فان الذى يجعل  
القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية انما هو هذا النهر  
الذى يهبها الحياة ، فالمدن الاخرى التى تقوم فى الصحراء  
حيث الواحات انما يغلبها العطش ويهددها ، أما القاهرة  
فالصحراء عندها يشقها النيل — أطول أنهار العالم  
القديم — يحمل اليها العطايا من شاطئ الأطلسى عبر  
الغابات والأحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى

## الفصل الثانى

### القياهرة .. بنت النيل

منذ أن امتنع ورود ماء فيشى للقاهرة ، لا مندوحة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفاً على ماء النيل ، هذا النهر الذى يلاحقه شعار : « من شرب منه عاد اليه » ، وأصدق منه الشعار القائل : « من ارتوى منه لم يطق السلو عنه » . أما للفلاح فمأؤه ، وإن عكر ، فهو نعمة فيها الحياة ، فالناس تتشبث بهذا النهر وتلوذ به ، ففى فراقهم له عذاب الاشراف على الهلاك

وهذه العبارة الاخيرة ليست من وحى بلاغة خطابية ، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيداً عن شريط الماء وضللت السبيل فستموت عطشاً إن لم يتداركك البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول ، فالمطرس نادر ، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم فى بيداء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الاحمر الى شاطئ الاطلسى عبر الصحراء الكبرى ..

أما اصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه ، فاللون المفضل عند مجائز العقيلات فى انجلترا لحفلات الرقص يوصف بأنه اخضر نيلى ، فاقترن النيل بخضرة يختص بها — اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها الفرشاة التى رسمت ريش الطناووس ، أو عند منتصف الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ

أما الوصف الذي لا يلحق النيل فهو أباء الثبات ، فإن مجراه قد خضع - ككل شيء في الوجود - لتتصارييف الزمن . والخضوع هنا تنظيمي ، للقضاء على نزوات النهر في الماضي . أن النيل لمصر هو شريان قلبها . وكان أول بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الاسلام هو مقياس النيل ، عند الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة ، ولا يزال هذا المقياس ماثلا للعيون وإن أقيم فوقه سياج حديث ( وكان للفراغنة مقياس للنيل في الاقصر وغيرها من المدن ) ومقياس النيل بشر عميق كسيت جدرانها بالحجارة ، في وسطه عمود له تاج من طراز كورنثي . و « الدراع » هو وحدة القياس المبين عليه . ان استنباء مقياس النيل أشد لزوماً وأجل خطراً من التكهّنات بحال الطقس عند الأوروبيين قبيل العطلات الصيفية ، فعلى مقدار ارتفاع المياه في المقياس يتوقف الغد : أما خصب وما جذب . .

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقيا يقع في أواخر أغسطس . حينئذ تخرج المدينة كلها للترحيب بمقدمه في احتفال يسمى « وفاء النيل » . أما في السنين التي يخشى فيها أن لا يفي النيل كعادته ، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطئ الشرقي وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الأديان جميعها - أئمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود - فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء . كل يقرأ في كتابه المقدس - ليمن الله عليهم بنيل واف عميم . وكان الفراغنة في القديم يحسبون الفيضان من دموع ايزيس وهي تبكي على اوزيريس ، وكانت لهم طقوس تتصف بانقسوة ، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهي



رحيمة ، انها طقوس زفاف النيل العاشق وعروسه  
« عروس النيل » كانت في القديم فتاة يضحي بها كما  
كان يضحي اهل اثينا ببعض فتياتهم على قرون «ميناتور»  
الغول الذى نصفه انسان ونصفه ثور ، ثم أصبحت  
العروس دمية في حجم فتاة

والان تتولى السدود تنظيم النهر ، فلن يتكرر جفاف  
شهر يوليو الذى يعقبه ، بشكل درامى ، غمر الماء فوق  
شواطئه الطينية العامرة بالفيران . لم يعد يتألف موكب  
الزوارق للاحتفال بالفيضان ، واذا علا ماء النيل فى اوائل  
الصيف فانه علو قليل ، حينئذ يشكو اهل القاهرة من  
الرطوبة تضاف الى الحرارة ، فيهرب الاغنياء منهم الى  
الاسكندرية ، وطبة هى ايضا ولكنها اندى نسيما ، دع  
هناك شكوى اهل القاهرة ايضا من كثرة البعوض

لقد بدل النيل مجراه على مر الزمن فتبدلت ايضا  
مرافقه ، فاقدم موانئ النيل على الشواطئ الشرقى  
للقاهرة ( اما منف فهى على الشواطئ الغربى ) كانت  
بالقرب من موقع باييلون الرومانية الى الجنوب من  
القاهرة بنت اليوم . وفى القرون الوسطى كانت الميناء  
هى « المقس » بالقرب من الموقع الذى يحتله الان فندق  
الكونتنتال وحديقة الازبكية ، وحى المتاجر والملاهى  
- بطابعها العصرى - الواقع على يسار خط يمتد من ميدان  
المحطة « باب الحديد » الى باب اللوق عبر الازبكية ، كان  
ارضا عامرة بالساتين والحدائق فى اوائل القرن التاسع  
عشر تفرها مياه النيل فى كل صيف . وفى القرن الثامن  
عشر كانت الارض التى تحتلها حديقة الازبكية مكانا لبحيرة  
متسعة ( وقد تقلص حجم هذه الحديقة على اثر التخطيط  
الحديث لمدينة القاهرة ) ثم انحصر ماء البحيرة وجفت

أرضها بحيث استطاع نابوليون أن يستعرض فوقها جيشه . أما ميدان باب اللوق - كما نعرفه اليوم - بسوقه ومحطة الضاحية حلوان - فقد كان في القرون الوسطى مرفأ القاهرة - بابها من ناحية النهر . فلما بدل النيل مجراه اختفى « المقس » وحل محله بولاق ، وبرز من النهر بجزيرته « الجزيرة الوسطى الآن » ، ثم اندمج حتى بولاق في بقية أحياء السكنى وضاع بينها - كما ضاعت شلزي في لندن، ولكنه كان حتى أيام نابوليون الباب النهري للقاهرة ، وكان الدين يصلون بالسفن إليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة اكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة .

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب ، بل جرى عليه عدوان الاسمنت المسلح ، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الأشجار

وكان يشق قلب القاهرة الى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضان تتدفق اليه من مصب اندثر مكانه الآن ، ليسير بعد ذلك في اتجاه شارع الموسكى، وكان هذا الخليج يضى - فعلا لا مجازا - على المساكن المطلة عليه عطور مدينة جديرة بأن تسمى « بندقيّة الشرق » ، وقد حل هذا الخليج محل القناة التى أنشأها الامبراطور الرومانى تراجان لربط وادى النيل بخليج السويس عبر شرق الدلتا ، وقد بطل استخدام هذه القناة الى أن جددها عمرو بن العاص ، أول حاكم مسلم لمصر ، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبلاد العرب . وشارع الخليج الآن - وكذلك شارع السكورنيش - هو أطول شوارع القاهرة ، أنه شارع عريض لا يسلم من الدمامة ، وعمدان النور فيه قمم مصنوعة من الألومنيوم

أسمه الآن شارع بورسعيد . حقا أن أسماء الشوارع  
أسرع من مجارى الأنهار فى التبدل

وكان النيل فى مطلع القرن التاسع عشر - كالبسفور  
- بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام ، يلقى فيها  
بمشيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتتلقفهم أحضان  
نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشق الانثى ، أما  
اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الاليمة وصار النهر  
عنصر وداعة ورقة فى مدينة تتصف بحدثة الملامح والطبع

وامام فندق سميراميس يقف نوتية سفر الوجوه  
لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الاجانب استئجار  
فلوكة ، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان فى أقصى الجنوب .  
واجرة نزهة لمدة ساعة هى خمسة شلنات . وما أن تخطو  
فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيدا الى الوراء كل  
ضجة ورائحة للبترول ، وتنتفخ بالهواء القلاع المرقعة  
وتعالج بحذق فاذا بالأذن يشجبها صوت تلاطم الماء  
على جانبي الفلوكة . أن شكلها مخلد على صفحة النيل ،  
تنساب أمام المبنى الحديث لمستشفى قصر العيني الى  
كوبرى الجامعة ، وفى أيام الاعياد والعطلات تنبعث غلالة  
من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الاسمنت وسط  
النهر أقامها « مصنع كروب لأقامة الكبارى »

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الآخر ،  
نهر دجلة ، واسمه فى اليونانية تيجريس بمعنى النهر ،  
فدجله نهر مفترس عنيف يطغى على الاراضى فى أسوأ  
موعد ، أى فى فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضانه ،  
أما نهر النيل فهو أكثر أنهار العالم نفعاً - نافع للرى  
والنقل على سواء ، فان تياره المتدافع دوما نحو الشمال  
يحمل السفن الى البحر الابيض المتوسط ، ورياحه الغالبة

عليه تهب من ناحية هذا البحر فى الشمال فهى تسهل  
على هذه السفن رحلة العودة دون حاجة الى عون آخر ،  
وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة الى  
مياهه أى عندما يبدأ لهيب الصيف فى تقديد الحقول

ويحب اهل القاهرة النيل لانه عنصر الوداعة والرفقة  
بيئتهم الصحراوية ، وأفضل المساكن ما كان مطلا عليه ،  
وبعد أن احترق فندق شبرد فى مكانه القديم بجوار  
الازبكية ، اقيم له مبنى حديث يطل الى الغرب على النيل  
هو وفندق سميراميس وفندق هيلتون . وينشق النيل  
الى فرعين اذا التقى بالجزيرة الوسطى ، أما فرعه  
الغربى الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب ، هى  
العوامات ، قميئة وان تكن عليها مساحة رومانتىكية ،  
وأكبر عيب فيها انها عرضة لهجوم البعوض

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال  
القاهرة . انها سد عريض يحتجز الماء لاشهر اربعة  
عطشى . وهذه القناطر ترمز لتوسط موقع القاهرة  
عبر التاريخ فهى مقامة عند رأس الدلتا فملكيت السيطرة  
على مصر السفلى والعليا ، ومن ملك مفتاح الماء فى بلد  
صحراوى ملك البلد كله . ويرجع الفضل فى اكتساب  
القاهرة لاهميتها الى انها واقعة حيث يتفرع المجرى الموحد  
للنيل الى عدة رياحات تنتشر شمالا كالمروحة لتروى  
أرضا هى مضرب المثل فى الخصب . والقاهرة ليست  
مدينة كبيرة فصص ، بل انها عاصمة كبيرة ايضا  
فى يدها مقاليد أمة بلا منازع ، ولكن أهلها خليط من  
أجناس عديدة ..

## الفصل الثالث

### القاهرة .. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولدها مدينة (١) متعددة الألوان ، حتى في القرون التي كانت فيها « دار السلام » مفصولة عن « دار الحرب » - أي البلاد النصرانية . لم تنقطع أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر ، من بينها شستات الصليبيين ( سنة ١١٦٣ ) . هذه هي حال لم تتبدل لمدينة لا تكف عن التبدل . طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز ، الذين صاروا فيما بعد حكام البلاد تحت اسم المماليك ، والرقيق الأسود من السودان ( وما كان أكثر ثورتهم على الجلابة تجار الرقيق ، وكان هؤلاء في وجلهم يجعلون بيوتهم أشبه شيء بالحصون ذات الابواب المنيعه ) . والى جانب أولئك جميعا تجسار من جاوة

(١) كلمة مدينة هي من الكلمات التي حار اللغويون في معرفة مصدر اشتقاقها ويقول الأستاذ الدكتور محمود حجازي في كتابه « اللغة العربية عبر القرون » ان بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الآخر أنها الميم ليست أصلا وأن الأصل هو دى ن أو دان والواقع ان البحث المقارن يخرج هذه الفروض الى مرحلة الالتيات العلمى فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون والديان في العربية والعبرية والآرامية هو القاضي و « بيت دين » في العبرية هي محكمة كما يعرف العربية « الدان » و « الدين » لمصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعنى أساسا القانون وما يتعلق به من ضوابط والتزامات . أما الصيغة ذات الميم فظهرت في الآرامية بمعنى وحدة قضائية ، فالمدينة هي المركز الذى التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعا وحسدة قضائية . وعندما انتقلت الكلمة الى العربية واطلقها الرسول على يثرب كان هذا لما يبدو أول استخدام للكلمة في العربية

والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش ، وأكثر من هؤلاء عددا وتدفقا حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنوب الوادي تجري في عروقهم آثار دماء فرعونية ، يضاف اليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة . وهكذا استقر من قديم طابع القاهرة المميز لها - طابع تعدد الالوان كما كان يبدو في معاهدها العلمية وفي خاناتها التي تستقبل التجار من كل الانحاء ( ويحق لنا أن لا نعتد على صيغة التعميم - وان كانت جديرة بالملاحظة - التي أوردتها نائشة كتاب « دليل المسافر » سنة ١٨٩٦ عن دار موراي للنشر في وصف أهل القاهرة اذ جاء فيه أن ابن البلد القاهري أسرع وأذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهو بصفة عامة يتميز بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة للصفرة والفم الواسع والشفتين الغليظتين كاملتى الخلقة والانف البدين العريض والساقين الضخمتين كما لاحظ العين انه صلب متين البنيان ) .

وحين فتح نابوليون أبواب مصر للأوروبيين أصبح تناقض الوان القاهرة اشد اثارة للانتباه والعجب فقد انضم الغرب العصري على الشرق التليدى ، وان كانت الاضافة الجديدة لا تمثل افضل الغربيين أو من ذوى الاستقامة والامانة منهم ، فقد توافدت على مصر فى القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاريين من الفقر فى بلاد جنوب أوروبا ، وأصبح عدد هؤلاء الأوروبيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الالوف ، وانضم اليهم نجواب الارض من الليفانتيين نسبهم المصريون المضيافون الى الشام وهى كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتد حتى تشمل سوريا ولبنان . وازدهرت أحوال هؤلاء الاجانب

فى مصر - اللهم من جيث الصحة كان الطبيعة تفسدق  
عليهم بيد وتعاقبهم بيد ، وان سحتنتهم لا تسلم من ان  
يفشاها شحوب رمادى اقل رواء من سمررة من يقيمون  
بين ظهرانيتهم ، ولكن رصيدهم فى البنوك كان يتمتع  
دائما باطيب صحة ..

وليس اسم العاصمة فى اللغة الدارجة هو القاهرة ،  
بل مصر ، وهو بالعربية يطلق على القطر كله . ومنذ ثورة  
١٩٥٢ اصبح التمسير - عن خطة او عفوا - هو السياسة  
المتبعة ، فانحسرت موجات الاجانب الوافدين ، ازاحتها  
قوانين جديدة واجراءات المصادرة والتأميم وتغير المناخ  
السياسى ، وما جذب ايضا هؤلاء الاجانب الى العودة الى  
مواطنهم الاصلية هو ما اصبح يعمها من رخاء . وامست  
القاهرة اقل وضاحة واناقة . وكان الشعب فى اواخر  
عهد فاروق قد سقط فى وهدة فقر زاد من وطأته ان لانجاة  
منه ، وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ( وقد  
قامت محطة بنزين بين شارعى عدلى وثروت مكان نادى  
« التيرف » الانجليزى ) لم يكن احتجاجا على الففسر  
فحسب بل كان احتجاجا ايضا على الترف الباذخ وسط  
هذا الفقر ، ففى تلك الايام الكئيبة كان شارع فؤاد الاول  
وشارع سليمان باشا ( ٢٦ يوليو وطلعت حرب الان )  
ترتادهما اميرات جميلات لشراء كل ما يروق لهن من  
المتاجر الفاخرة ، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقع  
وانواع الجبن الاجتبى ترد لها بالطائرة من باريس ، بينما  
عاش افراد الشعب على دخل لا يزيد عن قروش قليلة .  
لم يعد فى القاهرة الجديدة قمم للاناقة ، فالقصد هو تحقيق  
الاستواء ، لاقم تشمخ فيها الاناقة ولا وهاد يعشعش فيه  
الفقر ..

وإذا كان هدف الحكومة هو الوصول الى مجتمع  
متجانس فان العين لا تخطيء أن تلاحظ تباين الأنماط بين  
أهل القاهرة ، فالمدينة في ذاتها — بتعدد أحيائها وأحوالها  
— تعكس اختلاف الأجناس والألوان والعادات التي يتألف  
منها المجتمع القاهري



## الفصل الرابع

### القاهرة - الطابع البلدي

بالقاهرة ثلاث صحف يومية - الاهرام (١) والاخبار والجمهورية - تتنافس فيما بينها ولكنها لا تتشاجر ، ورسامو الكاريكاتور فيها اذا تمثلوا القاهري القح جعلوه عادة رجلا نحيلًا قصيرا مخلوع العذار ، ذرب اللسان ، قد يلبس نظارة ، ويخب في جلباب فضفاض من قماش قطنى مخطط وينتعل خفًا من الجلد ، وعلى رأسه عمامة مشوشة - او طاقية قطنية بيضاء ، فالطربوش الاحمر - وكان قد استحدثه الاتراك اقتباسا من شمال افريقية - قد اختفى لاعتباره رمزا للتخلف ، فلا يتشبه به الا الا السباح الاجانب وخدم المطاعم من اهل النوبة ، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزى الذى انتقل اليه الاتراك فيما بعد « البيرييه » التى فرضها اتاتورك على شعبه ، وهى غطاء من قماش للرأس ينتهى برغرف أمامى ، وتختص به الطبقة العاملة فى أوروبا ، لم تأخذ بها القاهرة تقليدا للاتراك ، فأغلب رجال العاصمة ، وكل نساؤها بصفة عامة يسرون برعوس عارية والصيغة التى تطلق على القاهري كما يتخيله رسامو

---

(١) جريدة الاهرام هى اقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تولا وقد هاجروا من لبنان فى سنة ١٨٧٥ . وقد صدر قانون فى سنة ١٩٦٠ الذى الملكية الخاصة للصحف

الكاريكاتور كما تطلق على الشوارع الخلفية هي صفة « البلدى » وهى فى اللغة نسبة الى « بلد » • وكلمة بلدى تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الاحياء التى تعيش فيها هذه التقاليد • والمصرى بجلايته المخططة وصوته الاجش واهتياجه السريع وفضفضته فى التعبير عن نفسه بالصوت والاشارة ، قد يبدو فى نظر السائح الاجنبى ! لهياب شخصا متنافرا مع عاصمة تتراكم عليها المدنية الحديثة ، بل قد يبدو شخصا يثير التوجس ، أما الذين يكلفون انفسهم عناء «مقابلته » وهو سهل المنال فى مكانه الصغيرة او فى مقهاه المألوفة « يجدون ابن البلد هذا - ملح الارض - شخصا يتصرف بالتواضع والصراحة وحب الفكاهة والمساواة بين الناس ، فان كان شبيخا فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت الكريم بضيوفه • ان اساس نمط معيشتهم قد رسخ فى اقدم احياء القاهرة حيث تراكم الزمان طبقة فوق طبقة ، وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو فوق اكوام النفايات .

والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة ، وأشدهم دقة هو أدوارد لين صاحب الاثر المعروف « العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين » ووصفوها بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى لتبدو كأنها غير مأهولة ، وفى سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد ، ما ترتب على نمو السكان من اختزال الى اصغر فأصغر للبيوت العربية الفسيحة بأفنياتها الداخلية الرطبية ، مما ادى الى تزاحم المساكن واختفاء العناية بها • وحين نشر لين بول وصفه للقاهرة . بعد سبعين سنة من التاريخ السابق كان لا يزال فى الاستطاعة التحدث بإفاضة عن

الاحياء القديمة على النحو الآتى :

« بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك في هذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور ، هنا تحس أن المعمار المصرى قد وفق أبعد توفيق فى الوفاء باحتياجات العيش تحت سماء الشرق ، فانه جعل الشوارع ضيقة ، يسقط عليها ظل المشربيات البارزة لان الشمس تصب شواظها ،

فلو كانت الشوارع فسيحة كما هو الحال فى مدن أوروبا لأصبحت لا تطاق . وان جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مع احاطتها بأفنية خلاء أو مزروعة بساتين وحدائق ، فحين لا هواء تصير حرارة الحجرات فى الصيف غير محتملة ، وفن المعمار المصرى كان يقتضيه ان يبنى لك بيتا لا تطل منه على جارك من خلال نوافذه ولا يطل هو عليك من خلال نوافذه ، فكان الاسلوب البديهي لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلى على الاسوار . وستر النوافذ بمشربيات كأنها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأتى للمار الغريب ان يتبينه . وهذه المشربيات - او قل هذه الستائر الخشبية - وكذلك هذه الافنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضى بحجاب النساء »

ومابقى الآن من بيوت من هذا القبيل يعد من معروضات المتاحف - مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون ، تولى ضابط بريطانى الاحتفاظ بهما بطابع القرن السابع عشر وخلق اسمه على ما يعرف اليوم بـ « متحف جابر أندرسون » . وفى القاهرة القديمة بيتان بديعسان من الطراز المملوكى : بيت جمال الدين الذهبى وبيت الشيخ السحيمى ، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة

الحديثه - ذلك ان حجاب النساء قد سقط لزومه فى حياة المصريين اليوم . ويرجع بعض الفضل فى هذا التحول الى نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الازهر الذى توفى فى السنة السابقة لنشر الكتاب الذى نقلت عنه . وكان من نتيجة شيوع هذه الافكار ، مع تفسير جديد للدين الاسلامى يتلاءم مع القرن العشرين أن أصبح الاف من النساء يعملن مع الرجال جنباً الى جنب لا فى دور العلم فحسب بل فى المصانع والمكاتب الحكومية . وهناك فى الازهر اليوم فتيات يدرسن علوم الشريعة ..

وساير نزعة التجديد فى الفكر الاسلامى نمو مطرد خلال قرن لنظام علمانى للتعليم ، فى قمته جامعتان فى القاهرة ، تقوم بجانبها ايضا جامعة أمريكية . واغلب الشباب من الكتاب والمفكرين لهم نزعة علمانية ، وبعضهم يولى ظهره للدين ..

دع عنك هذا التحول الفكرى ، فان تزاخم البشر فى القاهرة يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلا ، ولم يعرف الريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن سافرات يساعدن رجالهن فى العمل بالحقول . ان نظام الحجاب كان شرفا مقصورا على المدن . وكل مبالغة تقصر عن وصف ازدهار الاجساد فى القاهرة اكبر مدن افريقية - لا لان أهلها يتكاثر نسلهم جيلا بعد جيل فحسب ، بل لانها كالعهد بكل العواصم بمثابة الاسفنجية ، تمتص مئات الالوف من المهاجرين من أبناء الريف ، وترتب على ذلك ان كل قطار قادم من الشمال او الجنوب يصب فى القاهرة مزيدا من السكان . كان عدد هؤلاء السكان سنة ١٨٨٢ هو ٣٧٤ر٨٣٨ ، وتضاعف هذا العدد عشر مرات فى سنة

١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين حين تمضى سنة على نشر هذا الكتاب

والقاهرة القديمة . . اى هذه الرقعة التى لا يتجاوزها صوت المؤذن فى مساجد حى القلعة ، لم تعد المركز الذى يتكشف عنده هذا النمط التقليدى لحياة أولاد البلد ، فهذه شبرا كانت قرية انشأ فيها محمد على قسرا صيفيا له ، وكانت الكتب المعدة للسائحين الى مسنة ١٨٩٦ توصيهم بشبرا اذا أرادوا الركوب فى الامسيات للتنزه فى الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه . أما اليوم فاذا اردت ان تشاهد الريف فعليك ان تمضى الى جهة أخرى :

غربا الى الاهرامات أو جنوبا الى حلوان ، لان شبرا ذاتها أصبحت أشد زحاما من ايسنت هام وهارلم اشد احياء لندن ونيويورك زحاما ، واحتل نظام المعيشة البلدية مئات من شوارعها . وإذا كانت شبرا لم تعد تصلح لمن يريد التنزه فى الريف فانها مع ذلك تستحق الزيارة بسبب أن فيها كنيسة « سانت تريزا » وهى احسن المزارات العجيبة الموجودة فى العالم ، أخذ فى انشائها فى العقد الثانى من هذا القرن طائفة من الكارملييت تجمع بين الانجليز والارلنديين ، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب اليه جموعا غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء ، والكنيسة القائمة اليوم هى مزار للامهات المصريات ، يدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجى يضم رسما للقديسة ، وجدران مدخل الكنيسة منقوش عليها نذور بأكثر من اثنى عشرة لغة من بينها نذر لرئيس وزراء سابق فى مصر .

و « العباسية » حى كذلك من الاحياء السكنية التى اندلعت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت على

الاراضى البراح الممتدة الى هليوبوليس والمطار ، فقصر حبيب سكاينى ، وهو أعجوبة بطرازه القوطى وبأعمدته على هيئة فتيات من ذوات الأجسام البضبة وبأطرافه الجدرانىة المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحرفين الاولين لاسم صاحبه الليفانتى ولقبه ، كان فى الاصل معدا لاقامة خلوية ، فأصبح الان تلتقى عنده دروب عديدة لحى سكانى مزدحم الى درجة الاختناق . وحتى فى هليوبوليس « مصر الجديدة » تمتلئ الشوارع الخلفية بمنازل على غرار منازل الاحياء السكنية فى القاهرة القديمة ، ولكنها تستوعب اجهزة الترانزستور والغسالات الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفا منزوعة من نفاية خيوط الغزل أو صفيح السباك ، وتلعلح أجهزة الراديو من المقاهى ، ويسير الناس فى الشوارع مرتدين البيجامات وتعرقل ٤٠ ألف سيارة حركة المرور ، ويندفع رجال الشرطة بزيتهم الاسود شتاء الابيض صيفا فى نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالى البالى أن ثورة توشك أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول هذا كله الى تكشير بالانياب سرعان ما ينقلب الى تبادل السلامات . وهنا طرح كبير للاطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخلاط متباينة ولهم ضجة عالية ، انهم لا يزالون فى رهبة من آبائهم ، كثير منهم يميل الى الشر وبعضهم الى الانحراف ، ولهؤلاء ملاجئ اصلاحية يدخلونها ان أمكن القبض عليهم فهم خفاف فى الجرى والقفر ، ومع ذلك فلا تدل الاحصاءات على تفشى هذا النوع من الاجرام المهدوم الهدف الذى هو فى بعض الاحيان طابع المجتمعات الاكثر رخاء

والاحياء البلدية فى القاهرة جدرة بالزارة فى جولة استكشافية فى بقايا لا تزال حية لسرح ألف ليلة وليلة، واذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصى العظيم عند العرب قد وقع فى بغداد فان المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة ، ولا يزال كثير من سمات الحياة كما تبدو فى ألف ليلة وليلة باقية الى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الاحياء البلدية هو ان تسعى اليها مشيا على القدمين ، وستكون آمنا مطمئنا ، ولكنك قد تتعرض لاشتباكات جدلية اذا ابرزت آلة تصوير لا ترحم ، فانها قد تثير الغضب والاحتجاج من جراء الشعور بانك تخليت عن دور الضيف - وللضيف مكانته المقدسة فى الشرق - لتقوم بدور « البصاص » الذى يتصيد عجائب القارات كما يتصيد هاوى الفراشات انواعها العجيبة وان هذه الامثلة التى تجمعها لعجائب السلوك الانسانى ستعرضها على اصداقائك فى بيتك حين تعود اليه فى جو من التندر والسخرية ، والسبب ان هؤلاء الناس اصحاب القلوب الطيبة قد بداوا يعيشون فى مأساة انتباههم الى أنهم متخلفون ، وان اعتماد كيانهم على الدروب الضيقة والمعيشة والعمل نشرا تحت قبة السماء قد يعد من الوصمات . والطبقة الوسطى فى المجتمع هى التى غرزت فى اذهانهم هذا الخاطر اكثر مما غرزه الاجانب . وفى الحق ان خير نتاج مصر هو الذى ينبع من هذه الدروب الضيقة ، فهنا حيوية هيهات ان يكون لها قرين ، وحماس وتطلع ، جذيران بالاعجاب ، لمباهج الحياة الصغيرة الهامة تنال عفوا

ولكن ليس كل افراد الطبقة الوسطى ينظرون الى هذا الطراز من المعيشة نظرة ازدراء ، فالروائى نجيب محفوظ

قد سجلَ بعناية قصوى مشاهدتها في روايته « بسين  
القصرين » وهي ثلاثية تتتبع الاجيال وتعكس حياة اولاد  
البلد في أدق تفاصيلها ، وكذلك يوسف شاهين وهو من  
المخرجين في ميدان السينما بمصر قد صنع فيلما عن  
شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتدى الجلاية وجعل  
حوادث الفيلم كله تدور في محطة باب الحديد بضجتها  
العالية وحواشيها الرثة الحظ



## الفصل الخامس

### القاهرة .. الطابع الإفريقي

وأغلب أولاد البلد في القاهرة يقبلون على شراء البنطلون إذا قدروا على دفع ثمنه ، يقتبسونه ويقتبسون معه نمط الحياة الإفريقية . وكلمة « أفريقي » هي المقابلة لكلمة « بلدي » . أنها النطق العربي لكلمة « فرانك » وهي اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا في القرن الخامس وأطلق في الشرق على الأوروبيين عامة ، فهي تعني الآن في موضوعنا كل ما هو ليس بمصري ، أو كل ما هو أجنبي ، وكان التفرنج يعني في البدء - علاوة على لبس البنطلون - الرقص الأوروبي على أنغام الموسيقى وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية في حجر الاستقبال بدلا من لافتات الخط العربي وأثاث من طراز لويس الخامس عشر - يصنعه للزبون المتفرنج نجار بلدي لا - ويعني فوق ذلك أيضا أيداع النقود في بنك لا في شمكية . كان هذا في البدء ، أما الآن فقد أصبحت جميع هذه الأشياء من صميم الحياة في القاهرة بحيث انقطع الاحساس بأنها من اختصاص الأفريقي

والتفرج القاهري (وهو مسلم في تسع حالات من حالات عشر) ينبغي التفريق بينه وبين «الخواجة» ، وهذا لقب صيغ في الأصل ليطلق على كل من هو مسيحي أجنبي وان شمل أحيانا القبطي : المصري المسيحي أيضا . ويعيش

المتفرنج القاهري والخواجة جنباً الى جنب في وئام اشد  
من وئام المسيحيين والمسلمين في قبرص ، الا ان لكل منهما  
حساباً مختلفاً للآخر . قد يكون نمط حياتهما متشابهاً ،  
ولكن « الخواجة » الذي كان من قبل يتميز بسلطان اكتسبه  
ابان هيمنة الغرب المسيحي على اقدار العرب ، قد  
خف الآن في الميزان . وكلمة « خواجة » ذاتها - وهي  
من القاب التكريم في لبنان - أصبحت في مصر تبطن معنى  
الازدراء ، لذلك يفضل الاجنبي ان يكون النداء عليه  
« ياسيد » بدلا من « يا خواجة » . فان كلمة سيد في مصر  
الآن تعمل عمل كلمة « مستر » في انجلترا

والطبقة الوسطى هي العنصر الحاكم على القاهرة  
الحديثة ، فمن صفوفها خرج اولئك الذين يخططون  
العاصمة كما هي اليوم ، ويرسمون لها اذواقها ، ويقودون  
ثورتها . وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثاً من  
الجماهير البلدية ، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولي من  
قبل ان يصبح للعامة من المصريين حق امتلاك الارض ،  
وكان كسر احتكار الاسرة الحاكمة للملكية العقارية هو  
منشأ الطبقة البورجوازية ، والفروق بين الطبقات المائعة ،  
والطبقة الوسطى آخذة في النمو ، وقد نحدث حجمها من  
نتائج احصاءين ، فبينما لايزيد عدد اصحاب السيارات  
في القاهرة عن ٧٠ ألفاً نجد مالا يقل عن ٦٠٠ ألف من  
سكانها بين موظف حكومي او مستخدم ، وفئة المستخدمين  
تشمل اناسا قد وضعوا قدماً - على الاقل - على اول  
سلم الطبقة الوسطى

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة في كل الاحياء السكنية ،  
ففي شوارع يغلب عليها الطابع البلدي بضجته ودكاينه  
ولعب اطفاله بالكرة في الطرقات ، تتعالى عمارات تسكنها

أسر متفرجة ، وان بقى لها أقارب فى القسرية او فى  
المدينة . ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابع  
الافرنجى . والزمالك هى اكثرها عمرا واشدها افتقارا  
الى السمة الداتية وهى تمتد مسافة ميل ونصف فى  
شمال «الجزيرة» ، هنا تتبادل اشجار البوجانفيليسا  
والزاكرندا والبوانسييتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها  
دور السفارات وأعيان القاهرة . اما الطرف الجنوبى  
من « الجزيرة » ، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادى  
الجزيرة ، وكان هذا النادى فى وقت ما وقفا على الموظفين  
الانجليز ورجال الاعمال الاجانب ، واليوم ورثة المصريون  
عنهم ..

اما الروضة - الجزيرة الجنوبية - فهى اقل طولامن  
«الجزيرة» بمقدار ميل ونصف وأقل منها ايضا تماليا ،  
فان عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى اليها الا لابسو  
البنطلون ، اما لابسو الجلابيب فهم الخدم والباعة ، على  
حين أن الشاطيء الغربى للروضة تتسم مساكنه بالترف

وفى أحد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشامصرى  
متزوج من سيدة يونانية ، وبلغ من غرامها بالطب الفرعونى  
القديم أن خصصت له ثلاثة معامل . وفى إحدى المناسبات  
عابضها صديق ثرى قتله السم يريد أن يملأ فراغه بشيء  
ما ولو كان شرا فتعدها ان تظهر قدراتها ، فحبسنت  
عنكبوتا ساما فى آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من  
الطين على هيئة هذا المستهزىء الساخر وأودعته بعضا  
من شعره وأظافره . ولم يحدث شيء ، ثم اضطرت  
الساحرة الى السفر الى سويسرا لبعض الامور العاجلة ،  
وبينما هى هناك وصلتها برقية تفيد ان صديقها هذا  
فى المستشفى على وشك الموت - فيما يبدو - بالسرطان

فاتصلت من زيورخ بالتليفون لتقوم بعملية انقاذ ، وامرت  
خدمها بأن يقتحموا العمل ، فوجدوا ان العنكبوت الذى  
كان على وشك الموت جوعا داخل البرطمان قد قرض  
طريقا عميقا الى داخل التمثال ، ربعا سعيا وراء قطع  
الاذافر ، فامرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يفسلوا  
التمثال فى ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن  
الحظ مكتملا) فما أن تمت العملية حتى شفى صديقها  
الضحية فى الحال

والطبقة الوسطى غالبية ايضا على الشاطئ الغربى  
للنيل عند محافظة الجيزة ، تحيط هناك باحدى  
مؤسساتها - وهى الجامعة - وكذلك غالبية هى على مصر  
الجديدة والمعادى ، وكانت الضاحية الاخيرة خالصة  
لسكنى الاوروبيين ، اما اليوم فسان العنصر المصرى  
شائع فيها ..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من  
الطبقة الوسطى ، هم اليوم على غير ما هم عليه ، وانت اذا  
اعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد  
من افرادها فى القاهرة يوافقك على رايك ، هذا مع  
الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين افرادها  
لا يخلو على أية حال من تحيز متفضل ، فالذى يقول  
انه متحمس لفصيحة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول  
انه متحمس للزنوج . والطبقة الوسطى فى القاهرة  
- كالشأن بها فى كل بلد - هى منبت افراد الامة وهذا  
هو مبرر وجودها . وأشخاص رواية « الرجل الذى فقد  
ظله » - وتجربى حوادثها فى حى قاهرى - يصفهم مؤلفها  
فتحى غانم تعميما بأنهم قساة و انهم جديريون بالسخرية  
والرثاء معا ، ولكنهم شهود على القرن العشرين فى كل

مكان ، وليهنا القسارىء الاجنبى اذا لم يجد نفسه  
صورة اخرى من هذا الانتهازى المجرد من البطولة الذى  
جعله المؤلف بطل روايته . وهذه الرواية - ومفهاكتابات  
اخرى عديدة - تعبر عن عقائد طبقة خلعت عنها قيم الماضى  
وازياءه . وقد وصف فتحي غانم حادثا بقى فى ذاكرته  
منذ طفولته كحادث هام ، حين تحدث عن ابيه القسوى  
الذى كان اول فرد فى الاسرة خلع الجلاية ، فان اباه هذا  
ذهب الى طبيب ليمحو بالكي آثار وشم على يده ، وكان  
الصبي يعجب بهذا الوشم واحزنه ان تختفى عن يد ابيه  
رسوم الثعابين والتروس ، فلما كبر الصبي ادرك ان هذا  
الكي فى غير ضرورة هو رمز مأسوى لطبقة تبتت معايير  
قيم تقليدية من اجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعة  
لهم بعد ..

وسواء كان هذا التحول صوابا او غير صواب فان  
تطلعات الطبقة الوسطى - على كل حال - هى التى تحدد  
للعاصمة رسمها ، فذوق هذه الطبقة هو الفيصل : أى  
المباني يهدم واىها يبقى واىها يقام . وتدشين انتصار  
الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل فى انشاء  
كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلومترا ، فقد ظل هذا  
المشروع موضع بحث طال سنين عديدة ، ثم اذا به يتم  
تنفيذه خلال اسابيع قليلة ، والان يتمتع المصريون من  
جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذى يعد حقا رثة جديدة  
للعاصمة ..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخيم ، حديث ، مريح ،  
فهاهو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له اشعاع صورة  
الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون اجهزة التليفزيون  
او لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة .

وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهية  
وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و ١٦ دقيقة

وكذلك برج القاهرة ، انه خارج من احضان الطبقة  
الوسطى ، وقد وصفته احدى النشرات الحكومية بأنه من  
روائع المعمار الاسلامى الحديث ، ولكنه يشبه سلة  
مهملات الورق ، ضخمة متعالية ، وفي سطحه مطعم دوار  
يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطيء جدا بحيث  
أن الذين يتناولون فيه - وسط جو من المرح - وجبة  
كاملة (حساء - لحم - فاكهة ) اذا رفعوا ابصارهم عن  
طبق «السكاوب على طريقة فيينا » رأوا ان المنظر قد  
تبدل كل التبدل ، أصبحت الاهرام على يسارهم حيث  
كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك

## الفصل السادس

### القاهرة .. والأرستقراطية

لم يكن للطبقة الوسطى قبل خمسة عشر عاما أية سطوة ولم يحظوا بالسكنى فى المباني والشقق الفخمة الا قليلا ، فقد كانت موجودة وقتذاك أرستقراطية يحسب لها كل حساب فيبدها زمام الامور . ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر الى الخارج معظم الارستقراطيين والاقطاعيين ، وفضل من كان منهم من اصل تركى ، دون أن يكون منتميا الى العائلة العثمانية المخلوعة ، الاقامة فى تركيا - واختار آخرون سويسرا أو فرنسا أو - كما فعل الملك السابق فاروق - مونت كارلو . وفضل البعض البقاء بعيدا عن الاصواء ما استطاعوا بمعاش ضئيل (وذلك فى حالة الامراء والاميرات السابقين ) أو بما بقى لديهم بعد التأميم والمصادرة . واستمر البعض فى شغل القصور الجميلة التى تحوى أثاثهم يستعملونها كيف شاءوا بدخلهم الضئيل . وأبدعت سيدة مجتمع سابقة قطعاً فنية رائعة من تجميع قطع الزجاج الفاطمى أو من قطع أشغال العظم القبطية التى يمكن اقتناؤها من محال بيع القطع الاثرية والانتيكات ، وشتان بين ما تبدعه وبين ما يصنع بالجملة لافواج السياح ، ويتحول نتاج ما تصنعه الى احدى الجمعيات الخيرية القبطية . ويعرف أمير سابق أنقام شوبان فى الاسنقبالات المحدودة من أجل البر أيضا . ولا يتصور كثير من هؤلاء

الارستقراطيين الذين بقوا كيف يتركون مصر ، فهم مخلصون لها بحماس يصر دائما ادراكه ممن اجتالوا أماكنهم ..

ويسكن في جاردن سيتي اثرياء الاقباط ، وكثير منهم اقتنى الكتب الانجليزية وتخلق بالمعيشة الانجليزية ، وياخذك العجب وقليل من الحزن أيضا وانت تزورهم في غرف مكاتبهم .. التي رصت جدرانها بالكتب عندما يسألونك بذهن شارد عن اسم كان ملء الافواه في عالم الأدب أو عن « زيد » أو « عمرو » الذي كان يشغل مركز نائب دولة أو سفير ثم بات في هامش الحياة

وقد نبذ الاقباط الاسماء الانجليزية واختفت أسماء مثل وليم وجفرى وسسل ، وحل محلها أسماء أكثر فطنة مثل « توفيق » أو حتى « جمال » وهي مداولات غير محددة تنفع للمسلمين والاقباط على السواء



## الفصل السابع

### القاهرة .. الطابع النوبي

والنوبيون طبقة أخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع في القاهرة مع أن آثار بلادهم هي محل اهتمام السياح ، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين . وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين ، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكنى حتى قد لا تلاحظ عين القاطن العابر في فندق هيلتون أو شبرد ، وأنا نفسى لم انتبه لوجود هذا الحي العجيب إلا حين كنت أقيم في بنسيون في الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب ، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكة وثقاء غنم ، فلما خرجت الى الشرفة واطللت منها رأيت قرية متناثرة على الاسطح المستوية للمباني المجاورة ، اذ هي تزيد في ارتفاعها عن ستة طوابق ، وتتكاثر فيها . تقليدا للفن الحنديث . زخارف من المعدن والجص اى أن المنطقة تقابل شوارع اكسفورد في لندن . وجدت من تحتى بظ ينطبط ، واغناما تلوك حزما من البرسيم ، ونساء في ملابس سود تمد أيديهن الى أقفاص الدواجن لتخرج بفطور عيالهن ( والبيض في القاهرة بيض بدارى الدجاج فيلزمك اربع منها لكى تصنع لك عجة ) . في كل قرية من هذه القرى المتناثرة على الاسطح يعيش البوابون - وهم في مساكن القاهرة من

علاماتها المتميزة - فانك لابد واجد عند مدخل كل عمارة  
بوابا - واحدا على الاقل - جالسا على دكة ، يلاحق بنظره  
الداخلين والخارجين ، وفي أغلب الاحيان يكون مع رفاق  
له ، والنوبيون يحبون المؤانسة . انهم يأتون من هذا  
الوادي الضيق ما بين أسوان وشمال السودان ، وقراهم  
تمتد طولا ، النيل هو شارعهم الرئيسى ، بيوتهم فسيحة ،  
نظيفة ، طليقة الهواء ، جدرانها مزينة برسوم من صنع  
أيديهم ، ما من باب عليه قفل ، فليس هناك سرقة ، وليس  
هناك زنى ، ويعترف القاهريون بأمانة النوبيين ويرونها  
سبب استخدامهم بوابين . ومع كل هذا فقد احتجت  
الحكومة السودانية لدى منتجى السينما المصريين لانهم  
يظهرون الشخصيات ذوى السحنة السمراء فى دور الخدم  
دائما ولم يظهروهم سادة مطلقا

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسامح . قد يحدث  
اشتباك بين خواجه ومسلم وبين مصرى حنطى اللون وآخر  
من أبناء السود ، ولكن لا يكون هذا الاشتباك بسبب نفور  
جنس من جنس . وبعض دروب القاهرة تشبه حتى هارلم  
فى نيويورك ، ولكن بدون حزازاته ، وأن كان السودانيون  
يتجمعون فى مقاه خاصة بهم فليس مرجع ذلك أنهم  
معزولون عن المجتمع ، بل الى اختيارهم هم أنفسهم لهذه  
المقاهى ، شأن المقهى التى تجدها فى كل مدينة وقرية كبيرة  
فى وادى النيل فيها أبناء القاهرة المقربون عنها

## الفصل الثامن

### القاهرة.. منازل الأموات

وفي أطراف العاصمة قطاع تقطنه الاغلبية العظمى .  
يقطنه الاموات . انها مدينة أو قل ضاحية ان شئت ،  
تمتد وتستدير مع مدينة الاحياء ما بين شوارعها المزدهمة  
وتلال المقطم - تلك الخريطة المقسمة دروبها تقسيما  
هندسيا تبين لك اذا وقفت عند مسجد الجبوشى فوق  
القلعة من أعلى الحصن الذى قد قلّذ منه نابليون بقبائله  
العاصمة البائرة . انها ليست أرض الجبانة وان كانت  
القبور جزء منها ، بل هى مدينة مسطحة وحشية اللون ،  
لها هى أيضا شوارعها ، وعلى بيوتها ارقام كأنما تنتظر  
مع الصباح موزع البريد ، ولكنه اذا دق الباب لن يفتح  
له أحد ، فاذا دفعه دخل الى ماوى كأنه مسخ للمعناد من  
مساكن الاحياء : خجرتان متجاورتان على أرضها بساط  
من التراب . وفى كل منهما نصب مستطيل من حجر أو  
جص ، وتحت أرض احدى الحجرتين يرقد الذكور من  
اموات الاسرة ، عزلهم الموت عن الاناث المدفونات فى قبور  
الحجرة الاخرى . ويسجى الميت على لوح من الحجر ،  
مكفنا ولكن بلا ناووس . ومتاح لك زيارة مقابر الممالك ،  
حكام مصر خلال ستة قرون ، وزيارة المسجد الذى يضم  
وفات سلالة محمد على ، ويرجع عهده الى القرن التاسع  
عشر وله زخارف كثيرة

وأعرف فتى مصرياً ولد ونشأ في أمريكا ، ذهب أخيراً إلى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته ، وكان لم يالف بعد عادات بلده ، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له في اهتمام خاشع أنه أتى إليه من بعد أن ألقى السلام على اخته . لم يفهم قوله أول الأمر ثم أسعفته ذاكرته وأدرك أن محدثه يعنى اختاً له ماتت في طفولتها قبل مولده ، أنها كانت راقدة في قبر الأسرة طوال السنين وتزار هي أيضاً

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهل منف من قبل أربعة آلاف سنة ، فإن في مدينة الاموات التي وصفتها ما يكفي للرد عليهم . كان الرومان يحرقون موتاهم ، والافريق يدفنونهم خارج المدن على قارعة الطريق ، أما الدين الإسلامي فمن سنته دفن الميت في قبر لا حد لسياطته حتى أنك تستطيع بيدك أن تسويه بالأرض ( قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع أنه توفي منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الآن في الرياض من يذكر أين هو ولا بقي من يزوره )

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الاسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات ، ففي الأيام المشهورة على مدار السنة - كأيام العيد الصغير الذي ينتهي إليه شهر الصيام ، وأيام العيد الكبير الذي يحتفل عنده بوصول الحج إلى مكة - تحتشد الناس وتتوافد على مدينتي الاموات ، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج إلى نزهة ، متلهفاً على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الاثواب الجديدة في العيد أو التمتع بالفسحة وشم الهواء . وكان هذا هو الشأن أيام الفراعنة في مواسمهم أيضاً ، وإن اختفت اثنتان من عاداتهم - الآن لا تحنيط

للموتى ، والدفن في الضسفة الشرقية من النيل حيث  
تشرق الشمس ، أما عند الفراعنة - اللهم الا أيام هرطقة  
اختاتون - فقد كان الميت يدفن - بعد تحنيطه بنفقة باهظة  
أو متواضعة وفقا لدخل الأسرة - في الضفة الغربية من  
النيل ، حيث مملكة أوزيريس

وكان تصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة ،  
وما الاهرامات والقبور الفائرة في الصخر الا محاولات  
لتضليل هؤلاء اللصوص . واهل القاهرة يعانون منهم اليوم  
ايضا ، شأنهم شأن اجدادهم . وهناك قوة من الحرس  
تجوب المقابر ، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم ايضا ،  
قامت متاجر صغيرة ببيع الشاي والادوات المدرسية .  
وبعض الغرف المبنية فوق المقابر قد اتخذها الناس مساكن  
لهم ، ولكن بالرغم من قوة الحرس وبالرغم من الغول الذي  
تقول الاساطير انه يسكن في ظلام المقابر ، فان كثيرا من  
الاسر تعمل المقص في أكفان موتاهم حتى لا تبقى لها قيمة  
تفري بالسرقة

## الفصل التاسع

### القاهرة .. ضلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن افريقية ( وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها ) بأنها ظلت منذ مطلع القرن التاسع عشر عاصمة قطر ، ايا كان هو ، فانه متقارب من الدولة الحديثة . وليس من قبيل الاطراء خلطنا هذا الوصف عليها ، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب . يكفي القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قاضيا ومستشارا و ٣ سجون بها ٨ آلاف من النزلاء و ٦٥٠ مستشفى بها ١٣٠.٣٢ سريرا وما يزيد عن ١٠٠٠٠ من شرطة المرور ، ليقال ان هذا كله لا يعكس انها عاصمة فحسب ، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة ، وهى أيضا فريدة فى أنها تمثل مجتمعا شرقيا فى صراع دائم مستمر مع الغرب ، لا تنازعها فى ذلك مدينة استانبول ( وهى مدينة لا بد أن يقال عنها أنها غربية فهى مقامة فى أوروبا ) فان القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب ، فقد نقل كمال اتاتورك عاصمته الجديدة الى بلد صغير فى قلب الاناضول ، ولا أحد فى مصر ( اللهم فى شهر أغسطس حين تصبح الاسكندرية بمثابة العاصمة الثانية ) يتبادر الى ذهنه التخلّى عن القاهرة

وعلى مدى قرن ونصف - ما بين نابليون وجمال عبد

الناصر - تولت حكم مصر سلالة اجنبية واحدة بلغ من تنابع توارثها ان أصبح يطلق عليها - تفخيما لها - كالثان مع بيوت الملك العريقة وفي التاريخ للعهد الفرعوني - اسم « الاسرة الحاكمة » ومنشئ خطوط هذه السلالة رجل مسلم من مدينة قولة في مقدونيا بشمال اليونان ، وكذلك الى مقدونيا ينتسب منشئ الاسكندرية العاصمة المتلثة لمصر البطالسة ، وبعد ان انحدر حالها وانكشنت واصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف ، أعاد اليها محمد على - المنتسب الى مقدونيا أيضا - ازدهارها ، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة للكه . وكان حين منحيته الى مصر من اتباع السلطان العثماني ، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون ، ولكنه قلب تبعيته الى نظام حكم مبتدع فريد اذ أصبح يخص نابوليون باعجابه الشديد ، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الاقاليم المتخلفة في تحطيم الممالك في مجزرة وحشية انقسم امتدادها الى مرحلتين ، الاولى تولاه نابوليون بالقرب من قرية امبابة ( التي اندمجت في القاهرة الكبرى اليوم وبها مسرح البالون ) فقد احاطت جنوده من حملة البنادق بالامراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون ، وفر من نجا من المعركة الى صعيد مصر والسودان ، انتظارا - هكذا ظنوا - لعودتهم الى مناصبهم واملاكهم يوم يرسل نابوليون الى باريس . ولكن محمد على - وهو في بعض الاعتبار آخر الممالك وانجحهم - دعا بقيتهم الى حفل في القلعة وفتك بهم هناك . ونستطيع اليوم ان نشهد موقع هذه المذبحة ، انه المعر الضيق المؤدى من القلعة الى باب العزب . وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التي هام بها المصورون في القرن التاسع عشر

فرسموه ، وفقا لاسطورة شائعة - وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاويا الى الارض . ولكن الحقيقة هي على خلاف الاسطورة ، وان كان قد نجا فيفضل مرض أعده عن حضور الحفل . واستمر القتل أيضا في الممالك الذين كانوا متفرقين في أرجاء مصر . . فمن هم هؤلاء الممالك ؟

انهم في الاصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم . وكما حدث في الامبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الامبراطور الى التسلط عليه يخلعونته متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله ، فان هذا الحرس من الممالك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر . وقد جاء هؤلاء الممالك من الاطراف الشمالية الشرقية لدار الاسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان ، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس ، وأحيانا بالتقى والورع ، وأحيانا بالانتهازية الكلبية ، ولكن محال وصفهم بأنهم مصريون . ورأس الممالك يصبح هو السلطان ، منصب قد ينتقل بالوراثة من أب الى ابن ، ولكن كان من المحبب لهم في المعتاد أن يتبنى السلطان مملوكا أثرا عنده ، وكان هذا المملوك اما يقتل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره . ويمكن القول بأن نظام الممالك يرجع

مبداه الى عهد صلاح الدين وهو كردى من أبناء القرن الثانى عشر ، فانه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم أشبه مايكون بنظام الحكم الاقطاعى في الغرب ، ولو أن فرق الجنس بين الممالك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادى النيل قد جعل هؤلاء الممالك أقل من بارونات القرون الوسطى في فرنسا وانجلترا اهتماما بالحقوق الديمقراطية ، وان اخطأنا عمدا في حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها . ولما انهزمت مصر أمام



الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باي آخر سلاطينها على باب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة المماليك قد دالت ، على يد غزاة لا يقلون عتوا عن اليهود في غزوه لانجلترا ، ولكن أعباء هذه الامبراطورية التي اتسعت فجأة ثقلت على الأتراك فراؤا من الأصلح أن تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم ، فبقيت هذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم الى نهاية القرن الثامن عشر وان بقي لموظف تركي سيادة اسمية عليها

ومن تركمة المماليك التي اورثوها للقاهرة شيئان : هذه العيون الزرق والخضر في بعض الوجوه السمر ، وهذا الحشد من الصروح الفخمة : مدارس ومستشفيات وفوق هذه وتلك مساجد بقبابها التي تتميز بها مقامة فوق قبورهم ، كأنما انتقل اليهم بالعدوى من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضريح لائق بالرقدة الابدية ، وهكذا أضفى الرواد على عاصمة دولة انكمش عدد سكانها من ٨ الى ٢ مليون نسمة ، فالقاهرة التي انتقلت من يدهم الى يد نابليون والى يد مريده المقدوني لم تكن الا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم . ويرجع الفضل في اتساع هذه المدينة الى أسرة محمد علي ، وان تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار الا بعد انقضاء عهد المماليك

ولم يشعر محمد علي في قرارة نفسه انه مصري قط ، ولو ان ابنه ابراهيم - هذا الجندي الصارم - كان يحس انه قريب الى أبناء العرب سمر الوجوه ، شأنه في ذلك شأن لورنس ، اذا راينا واجب تبديل زمن بزمن . وكان محمد علي يتكلم التركية لا العربية ، وبعد نفسه عثمانيا لا مصرية ، ولا حتى من مقدونيا . وكان له - كما للملك عبد العزيز آل سعود - وفرة من الاولاد ، ولكنه كان

في نفس الوقت من المعجبين بالمدينة الغربية الحديثة. وأراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فأنشأ الآلات البخارية وبنى القنارات . والطابع الذي خلفه على مدينة القاهرة يستمد اشعاعه من القلعة ، اذ شيد فيها قصره - قصر الجوهرة - بالقرب من باب العزب حيث تدوى صرخات أشباح المماليك الذين ذاقوا الموت ذبحا . وبجانب من قصر الجوهرة مسجده المقام على قبره ، وهذا المسجد لا يعد في نظر عشاق العمارة الاسلامية في القاهرة من أفضل نماذجها ، شأن دار الاوبرا في باريس بين مثيلاتها . وبرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فانه - في عاصمة مصر - يطفى على أفقها الشرقي

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ثرعة الجمودية ، وبنى القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها - كالشأن في أغلب منجزاته - كانت مهتزة الدعائم ، فلم يتم لها رسوخ . الا في التسعينات من القرن الماضي . وفي قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد ، كما نجده قاعدا في الصورة القلمية التي رسمها له روبرت كيرزون . قال :

« وجدنا الباشا حين لقيناه شيخا عفيا متين البنيان ، عريض الكتفين ، عريض صفحة الوجه ، واسع انفتاح المنخرين ، تضى عليه نظراته الحادة الوثابة هيئة أسد أكبر هرم . تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى امكان مد السنكة الحديدية بطول برزخ السويس . وكان هذا المشروع اكبر هم يشغل باله حينئذ . ولكن الحادثة التي سجلت هذا اللقاء بقوة في ذاكرتي والتي دهشت لها لانها تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن في ذاتها الا حادثة هينة ، فقد رايت الباشا يطلب منديله

فأخذ يبحث عنه فيما حوله ، ثم ينقب فى جيوبه ، فلم يجده . وكان أثناء بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته وحيرته بهتافات مختلفة ، استجاب لها آخر الامر خادم سعى اليه من اقصى الحجرة وقال له «ابحث عنه فى جيبك الآخر » فأجابه الباشا « فعلت فلم أجد فيه منديلى » رد عليه الخادم « اذن عد الى البحث عنه فى جيبك الاول » فلما أجابه الباشا « ليس عندى منديل » او بكلام من هذا القبيل ، كان الرد السريع الذى اتى اليه من الخادم « بل عندك منديلك » وتكرر القول والرد « ليس عندى منديل » - « بل عندك منديلك » وانتهى الامر بان تقدم هذا الخادم الى الباشا وأخذ ينقب فى جيبي سترته دون ان يجد المنديل ، فأخذت يده تدور حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلمعه قد طواه طرف الشال الذى يتلفع به ولكن بلا جدوى ، حينئذ أمسك الخادم بسيده مولاه وأماله الى اليمين فوق الأريكة ونظر تحته ليرى ما اذا كان قد قعد على منديله ، ثم عدله وأماله من جسيده الى اليسار ، وظل الباشا طوال هذه المناورة العجيبة على أتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام ، ثم دس الخادم ساعده الى الكوع فى أحد جيوب سرواله الكبير المنتفخ وأخرج علبة نشوق ومسبحة وأشياء أخرى صفها على الأريكة ، ولكنه لم يجد المنديل ، فانتقل يساعده الى الجيب الآخر ومدّه الى عمق مهول حتى أخرج من قاع الجيب المنديل المفقود ، وفى حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة الى يد الباشا ثم تراجع الى الطرف الأقصى من الحجرة حيث كان «

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ماكان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التي

اغتصبها ، وكذلك ونحن نستمع الى الهجوم عليه من  
 المنادين بالوطنية الحديثة . قد يكون محمد على نهازا  
 للفرص ، يعضى الى غاياته بلا رحمة ، وقد تكون اصلاحاته  
 سابقة لاوانها ، ضحضاحة لانها انبعثت من دوافع باطلة  
 - اذ كان بطمع ان يجعل من مصر قاعدة لامبراطورية  
 يقيمها لشخصه - ولكن رجلا له مثل هذا المسلك السمج  
 وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بان  
 يستجيب المصريون لسحره ، ومثل هذه الخلال لاتزال  
 الى اليوم في جميع البلاد العربية هي التي تمهد لحكامها  
 طريق النجاح

لم يرث احد من ابنائه عبقريته وانتماءه للشرق وقد  
 وجد اسمه اسوا تخليد له في القاهرة « فان اسماعيل هو  
 الذى اطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتاثير من  
 ذوقه الفرنسى ، فجاء اشد شوارع العاصمة دمامسة  
 واجترأ فانه هتك احشاء حى من اجمل احياء القاهرة ،  
 وهدم قصورا وازال حدائق وقوض جانبا من مسجده  
 عتيق لا لشيء الا لكي يسلم للشارع تمام امتداده على  
 خط مستقيم ، وهذا حرص سخيف عديم الذوق « هكذا  
 قال ستانلى لين بول . ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء  
 من اسماعيل هذه البواكى التى تجعله شبيها بشارع  
 ريفولى في باريس . ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل  
 اصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف  
 وانقطع انتظام البواكى ، فاختفى اكثرها واصبح جريحا  
 مثنائرا ، واصبح - باسمه الجديد شارع القلعة - من  
 اقبح الشوارع فى مدينة جميلة .

وحين ضاق اهل القاهرة ذرعا لخضوعهم لحكم سلالة  
 محمد على . كان مطلب ثأرهم عند قصورهم ، فقصر

عابدين - وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه - يطل على ميدان كبير . هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مشير مع الضابط عرابي - مثيل عبد الناصر في الثمانينات من القرن الماضي . أصبح الان يسمى بميدان الجمهورية وينقلب الى سرادق مكيب مهول تنصت فيه الجماهير الفقيرة الى الخطب احتفالا بعيد الثورة في شهر يوليو من كل عام ، اما القصر ذاته فقسم منه تشفله إحدى الوزارات « وزارة الاصلاح الزراعي » وقسم آخر يحتله ناد للشباب ، وقسم أفرد ليكون متحفا . وقد بيع أغلب أثاثه الفاخر ، وما بقي منه يتم عن ذوق اسماعيل الذي كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا ، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات اسماعيل مرتديات ملابس عقيسات طبقة السادة في اكسفورد ، وبقيت الادوية في الحمام الملكي كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش ، وبقي الميزان كذلك ، ذكرى حزينه لبدن يود ان يلوى كما دوت سمعة صاحبه . اما القصر الذي احتفل فيه اسماعيل بالامبراطورة الفرنسية ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا في المدينة لاسرة مسيحية من الصعيد ، هي اسرة لطف الله ، وبقي القصر بقدر ما كنا كان ، وان اقيمت على أرضه شاليهات مترفة

وقصر الامير محمد علي ( ولي العهد الى أن رزق بولد من زوجته الثانية ناريمان صادق قبل خلعه بقليل ) قائم الى اليوم بجزيرة الروضة ، من وراء أسواره العريضة دروب يحفها نبات الصبار او تظللها اشجار البانيان ، لا ينساها من يجوس خلالها ، تصلح ان تكون مسرحا لفيلم سيريالي أن صنعت هذه الافلام في مصر . وبالقصر

مجموعة ضخمة من صور فوتوغرافية للملك الدول ورؤسائها عليها توقيع اصحابها ، وفقا للمراسم . وينقلب طابع القصر المستلم من ذوق دمشق الى طابع عهد ادوارد في انجلترا اذا انتقلنا الى الحمام وراينا من خزف زخارف على هيئة ازهار . واقام الامير على ارض قصره متحفه وهو خير مكان تستعرض فيه السجاد الشرقى ، ولوحات الملوك ورؤساء الدول ، والمصاحف المزخرفة ، واشياء اخرى ثمينة من جمع امير شرقى مطلق السلطان .

وهذه الفقرة التى كتبتها لها صدقها ، ولكن السريعة التى يتصف بها تغير الأحوال فى الشرق الجديد مالبثت ان جعلت كلامى محمولا على الماضى ، فقد علقت على باب القصر لافتة بانوار النيون تعلن انه هو ايضا أصبح فندقا باسم « عمر الخيام المنيل » وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد فى الامكان صنع فيلم سيرىالى كالدى تحدثت عنه فان نبات الصبار قد اذبله غشيان السياح لذوبه وان كنا - أنا وانت - لم نهضم بعد نصيبنا من متعته . وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة

ولن تجد فى القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه ، وهذا حال يدعو للأسف ولو أنه مفهوم . فاذا كان هذا التراث يعد فى نظر الانجليز فى بلادهم منحدرًا عن عصر الملكة فيكتوريا عصر القوة السيادة ، فانه فى نظير المصريين ينحدر عن عصر اسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة . أما ابراهيم فلانه قائد عظيم فهو لا يزال يحتفظ بنصيب من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له امام دار الاوبرا نراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده ، على حين ان سليمان باشا ، هذا الفرنسى الذى اعتنق الاسلام واصبح معروفا

— إلى جانب ما يعرف عنه — بأنه أيضا جد نازلي أم فاروق  
فقد استمر تمثاله — الذى يمثله بسراويله الواسعة  
وبطربوشه — قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيل من الميدان  
القريب من محل جروبى حيث كان يعطى ظهره للسيدات  
البدينات المندفعات صوب الشيكولاتة ، ومن حل محله ؟  
تمثال باهت الشبه بطلعت حرب مؤسس بنك مصر

والذين يهيم ذوقهم بمطر الماضى الحديث هيهات ان  
يجدوا لهم غنيمة تفوق غنيمة زيارتهم لمتحف السكك  
الحديدية بالقاهرة ، ما دام باقيا . انه منزو بالقرب من  
محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النماذج والصور  
الفوتوغرافية ، تشهد باستيق مصر لدخول عصر السكك  
الحديدية فى وقت مبكر . وقد وصفت لك من سابق محمد  
على وهو يباحث كيرزون فى مد خط حديدى ، وقد تم  
مد خط بين القاهرة والاسكندرية سنة ١٨٥٦ . ويحتفظ  
المتحف فى احد مخازنه الجانبية بالقطار المسمى «بالكشك»  
الذى كان مخصصا لسعيد باشا والى مصر الذى أعطى  
الاذن بشق قناة السويس ، انه بين القطارات عديل سيارة  
رولز رويس بين السيارات وهو من انتاج مصانع  
ستيفنسون . . اول المصانع فى انشاء السكك الحديدية  
اطلاقا — وتم تسليمه سنة ١٨٢٦ . وقد طلى القطار من  
الخارج بالوان زاهية جعلته براقا كقطع الكريستال  
البوهيمى ارضاء للذوق الشرقى ، وفرش داخله بالطنافس  
فامتزجت مع الالات المللمعة امتزاجا غريبا . وكان سعيد  
باشا — الذى كان بين افراد أسرته الذين لا تنقصهم  
البداة اكثرهم امتلاء — مشهورا بأنه كان يقود هذه  
القاطرة بنفسه فى زيارته لاقطاعات اقاربه واصدقائه

اما عمران القاهرة فالفضل الاكبر فيه راجع الى

اسماعيل . تدوين له احيائها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الايطالى ، و احيانا بنصيبها من رشاقته ايضا . من اجل اسماعيل جرى اطلاق اسمه على هذا الميدان الواسع الذى كان فيما مضى تشينه التكنكات البريطانية فتحول الى منظر فخيم باقامة فندق الهيلتون مكانها . ولقد اقيم فى سرّة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قمتهما تمثال اسماعيل وبذلته الرسمية ، وتبدل اسم الميدان من ميدان الاسماعيلية الى ميدان التحرير

اما دار الاوبرا فهي الى اليوم درة منجزات اسماعيل ، بنيت على عجل من الخشب والجص لتلحق افتتاح قناة السويس ، ولكن تعجل الحاكم الشرقى لم يجد مجاراة له عند الملحن المكلف باعداد اوبرا عابدة لليلة الافتتاح ، فلم يستطع فردى انمامها ، ومثلت بدلها اوبرا «ريجوليتو» . وقد حضرت يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٦٤ أداء بديعا لاوبرا «لاترافياتا» مترجمة الى العربية فقدم ابراهيم رفعت نصبا بلغ القمة فى قابليته للغناء ، ولكن السيدات اللاتن استضافتهن فيوليتا فى صالونها جئن من عصر أشد ديمقراطية من عصر اسماعيل الذى لايزال الحرف اللاتينى الأول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبة على مدخل دار الاوبرا



## الفصل العاشر

### القاهرة .. طابع الأجانب

يجيء الاجانب فى الصف الثانى بعد أسره محمد على،  
فانهم - وربما بتوالس معها - حققوا للقاهرة ، ولانفسهم  
- مغانم كثيرة - فالبارون هرتز يدين له هسواة الفن  
بالشكر والتقدير لانه كان بمثابة القلب المحرك للجنة  
حفظ الآثار الاسلامية ، فلولاه - وهذا مثل من عديد -  
لبلى السائر الخشبي ذو الزخارف الدقيقة فى مسجد  
المارداني وتحول الى تراب

وهذا بارون آخر - البارون اميان - كان الهمة الدافعة  
لعمران هليوبوليس الضاحية الشمالية للعاصمة ، انشئت  
سنة ١٩٠٦ و يبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ الفا . وقد  
اتفق البارون اميان ارباحه من شركة الترام فى بناء قصر  
له على الطراز الهندى ، يعد من اغرب الابنية فى القاهرة ،  
انه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لاحد معابد  
مادورا فى الهند ببرجه الشاهق المخروطى وتمائيله على  
هيئة الفيلة ، وزخارفه على شكل رءوس مفزعة لمخلوقات  
خليط من حيوان وبشر . اما من الداخل فقد زود البارون  
قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى فى بلجيكا ،  
واتخذ من الشباك سائر نوافذه . واميان مثال للمغامرين  
الاجانب الذى وجدوا فى النظام الاقتصادى لمصر قبل  
الثورة مرتما خصبا لهم ، لم يكن بطبيعة الحال محبوبا

لان تشببه بالامراء لم ياتلف مع سماحة الشرق ، وكان  
يهم بالمعارك ، ولكنه حظى بصداقة الملك فؤاد ، فترجم  
هذا العطف الى امتيازات كبيرة غنمها

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون اميان  
احيانا قليلة ، فقد سبق له في الريفييرا في فرنسا حوالى  
سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه الى الملك الفونسو  
الثالث عشر وهو لا يزال على عرش اسبانيا ، ثم قام الملك  
بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذاً له اسماً  
مستعاراً ، فدعاه البارون الى العشاء فى قصره الهندى ،  
وقبل الملك الدعوة ، ولما اجتاز صفوف الرعوس المفزعة  
وجد بقية الضيوف جماعة من اصدقاء البارون القدامى ،  
كلهم من محترفى القمار فى النوادى الليلية ، أو من  
ارتستات الكاباريهات ، وجلس الملك الى المائدة ، وكان  
جلوسه هو كل شيء فعله ، لم ياكل ، لم يشرب ، لم يتكلم  
وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح  
جيرانه كأنهم خشب مسندة ، ولما انتهى العشاء قام  
الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندى الذى صار مثل  
فيل اسمر فى حديقة خشنة ماتت أشجارها التى لم تجد  
من يدفع ثمن مياه ربها . وقد أبدى أحد الامراء  
السعوديين مرة استعداده لتحويله الى استراحة لزملائه  
السعوديين عند حضورهم الى مصر للتمتع بجوها ، ولكن  
المشروع أهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة  
ما أعدت له هذه الاستراحة

ولكن مابقى واضحاً من نفوذ الاجانب هى هذه المطاعم  
والفنادق ذات الاسماء الانجليزية فى مطعم « سسان  
جيمس » - الذى اشتهر وانفرد بتقديم جمبرى البحر

الاحمر - يعرض عليك صاحبه يزهو قصاصة ترجع بك الى الماضي ، انها من جريدة « الإيجيشيان جازيت » في عام ١٨٩٥ تقول :

« سيطبق المحل فى مكانه الجديد الى الموسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجد السادة المقيمون حجرة للنوم مع الافطار تماما كما هو متبع فى حى وست اند بلندن فى المناطق المجاورة للنواذى الراقية الخاصة »

واختفت التقاليد الانجلوسكسونية تماما من فندق شبرد . اللهم الا اسمه ، ويرجع عهدا الى العصر الفيكتورى حين انشأ هذا الفندق رجل مغامر جاسور وجعله استراحة للذين ينزلون فى الاسكندرية من سفنهم ويفادرونها بالقطار ليحققوا ببواخريهم فى السويس . لقد كان فندق شبرد القديم معقلا من معاقل رجال الامبراطورية العظام ، وكانت الجرائد تهتم بنقل كل مايدور فى أرجائه حول النائه الخيزراني ونخيلاته المفروزة فى قصاريها . فمثلا اهتمت الجرائد بحفلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩١٥ حيث دار الرقص حثيثا فى القاعة المصرية بالازياء الفريبة المبتدعة ، وفى نصف الليل

« أعاد صوت تردد فى القاعة بعض الضيوف المجتمعين الى الواقع حيث شاهدوا نموذجا كاملا لطائرة ترتفع بلطف من القاعة الى أعلى نقطة فى صالة الرقص وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه ابتسامة وجهها الى الحاضرين جميعا ، واطلقت حمامات تحمل اشرطة عليها التمنيات الطيبة كما قام الجميع برمي كرات ثلجية كتذكارات لطيفة ، ولكنها لم تكن بالليونة فى حالة الضابط الصغير الذى طارت كرتة داخل القاصبة واصابت وجه الجنرال ماكلارن . وكان وقتا عصيبا

سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة . واخيرا انتهى كل شيء ونامت القاهرة ملؤها الحسرة والتعب . .  
والسعادة »

اما عن اثر فرنسا فان لغتها كانت - حتى في ظل الحماية البريطانية - اكثر تداولا من اللغة الانجليزية ، ولا تزال اللبسية الفرنسية قائمة ، ولا يزال الجزويت يحتفظون بمعاهدتهم ، والمجمع العلمى المصرى هو الوريث غير المباشر للمجمع الذى انشأه نابوليون . وهناك جامعة امريكية ، لا تنفك تتسع ، ويمثل طلبتها بعض مسرحيات تنسى وليامز

وتتأثر في القاهرة بنسبونات متواضعة للاجانب الوافدين من وسط اوروبا ، كصديقى يانكو ، وهو ارستقراطى من سلوفاكيا يهوى الرسم ، ويقطن فى شقة تطل على وزارة الاوقاف . انه يضع على عينيه نظارة سوداء ، ويعيش مع كتبه ومجموعته من نبات الصبار ، ويشرب الزبيب فى شرفة يرقب منها المارة ، ولا يخرج من داره الا ليشتري حاجته من سوق الخضار المسقوف فى باب اللوق او مزيدا من الزبيب من بقال يونانى قريب من داره ، ولا يفوته حضور افتتاح معارض الرسم العديدة التى أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم . أما رسومه هو فبالألوان المائية على ورق غير مستو ، وله اعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هو « الاحداث المشردون » وقد عثقت بصالة الخريف . ولما سألته عن الطابع المصرى فى الرسم اجابنى « ماذا تقول ؟ ليس عندنا الا جسر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد الفاسد كما كان الشأن فى الاسكندرية فى اواخر حكم الاغريق ، ولاغربة كان الامير يوسف كمال حين انشأ مدرسة للفنون

الجميلة سنة ١٩٠٨ اختار معظم مدرسيها من الفرنسيين ولكن العجيب ان المصريين ، بعد انقطاع عن الفن — التشكيلية على مدى ١٤ قرنا — باستثناء العهد الفاطمي — قد اخذوا الآن يعودون اليه بحماس كبير . وخديجة رياض — حفيدة احمد شوقي الشاعر — تعرض لوحات تجريدية ، ولكنى افضل شغلها في الحلى ، انه بديع ، ورعوف عبد المجيد يحيل اكواخ الشواطىء الى تكوينات تجريدية فكأننا بازاء عالم صامت متفرد لا تطيب له النفس وافضل المصورين عندى هى عفت ناجى ، وقد اشتهر اخوها محمد برسم هيلاسلاسى في الحبشة قبل الحرب الايطالية ، وتستلهم عفت رموز السحر — هذا العنصر الدائم في حياة مصر — السحر الاصيل الشرائى ، لا السحر المدعى طلبا للتصاحب ولبريق التظاهر ، ثم تحيلها الى رسوم ، وهى لا تعنى بمقاييس الذوق او الموضة الشائعة ، وهما مطلبان خطران على الفنان ، ورموز عفت السحرية هى من تشكيلات خشبية بارزة ، فلها ابعاد ثلاثة ، وتصبغها بدهان لامع كالفلورسنت »

اعود الى صديقى يانكو ، انه تحول الآن الى التصوير الفوتوغرافى ، وقد ظل مرة ساهرا طول الليل ليلتقط هذه اللحظة الخاطفة التى يزهر فيها نبات صيار مرة كل ثلاث سنوات . . ويقول يانكو بشىء من المرارة « الزهور ! نعم ! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور ، ولكنها عند المصريين اشياء توضع فى سلة مفضضة ، محزومة بشريط طوله عشرة أمتار ، وترسل لحفل زفاف ! »

واقول من جديد ان هذا الذى اكتبه قد عفى عليه الزمن ، فقد تلقيت اخيرا من يانكو بطاقة بريد مصورة وعلى طابعها خاتم ميوتخ

## الفصل الحادى عشر

### القاهرة .. الطابع الإسلامى

العمارة الإسلامية التى ابتدعتها القاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة فى هذا الفن ، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل . وقد رأيت أن أنسب هذه العمارة الى الاسلام ، لان نسبتها الى السراقة - كما فعل القرن التاسع عشر دائما - منافية للدقة والصواب ، ولانه كما يقول الةمة المتخصصين اليوم ، لا يجوز اطلاقا نسبتها الى العرب ، وها هو ذا الاستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم ، وقد يفتفر لى أن الجأ الى الصفة المشتقة من كلمة « الاسلام » لانها الاسم الذى يطلق على هذا الدين وحضارته ، فهى افضل عندى من كلمة « المسلم » التى هى صفة من يعتنق الاسلام ، فمن محامد النسبة التى استخدمها انها تنطبق على ابنية أنشأها معماريون مسيحيون

وحتى القول بان هناك مدنا اخرى تزهو كل منها بمثال للعمارة الإسلامية أوفى صدقا وكمالا هو قول موضع نظر . حقا ان كل من زار بورصة ( فى الاناضول ) ورأى عمائرها لا يسهه الا الإعجاب بالوانها الزاهية ، وان عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخضر ( فى لواء كربلاء ) أو لبقايا قصور سامرا ( سر من رأى ) التى بنيت فى القرن التاسع ، وان ضريح تاج محل

الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ماله من الهائمين بالتقاط صورته ، ولكنها جميعا اما ابناء فرادى ، واما - كما هو الحال في بورصة - ابناء من نتاج عصر واحد . اما القاهرة فهي وحدها التى تشهد بتطور متصل قرنا بعد قرن ، يتدرج من السذاجة عبر البساطة الى تعقيد التركيب ، ومن الازدهار العفى الى الذبول السقيم . وهكذا فان سجل حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والاجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنا هو الان معروض للناظرين . وقد كانت بغداد خليفة بان تنافس القاهرة ، ولكن بغداد خربها المقل بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامة اللطيف . لذلك اذا اردنا ان نتذوق الفن الاسلامى بغير ان تفسده رتابة التفاصيل كما في قصر الحمراء ، وبغير ان يشوّهه تعمل مبالغ فيه - كما في عمارة الهند - فينبغى لنا ، كما يقول ستالى لين بول - ان نتأمل مساجد القاهرة واضرحتها

واذا كانت القاهرة بهذا النمو العشوائى لحياتها السكنية تبدو مختلطة المسالك ، فان ميزتها انك اذا تأملتھا بصبر وجدتها لا تكشف لك عن اختلاطها الذاتى فحسب . بل تكشف ايضا عن اختلاط جانب دخیل وجانب أصیل لحضارة تتمركز فى القاهرة ، وهى اذ تكشف تفسر

ان منشوارا طويلا فى يوم واحد ( وان كان من الافضل تجزئته على ايام عديدة ) هو بمثابة درس لك ، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة الى الجنوب الشرقى لحوض البحر الابيض المتوسط ، كما تفهم تطورها

وينبغى ان يبدأ المشوار من الطرف الجنوبى للقاهرة

بنت اليوم . وفضل وسائل القيام به هو ركوب قطار  
ضواحي من محطة باب اللوق ( وثمان التذكرة في الدرجة  
الاولى ثلاثة قروش ، أى ما يعادل ستة بنسات ) ثم تنزل  
في المحطة الثالثة .. محطة مارجرجس ، فتشرف على  
مدخل ضيق لكنائس لا تخلو من دمامة . احن رأسك  
تحية لها والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصون  
القاهرة الرومانية ، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة في  
غد ، ثم امض في طريقك واسلك دربا معتما متربا يحاذي  
السور الذى يضم الكنائس ، فاذا بك تصل الى اقدم  
مسجد في القاهرة

وقد تم فتح مصر سنتى ٦٤٠/٦٤١ م وفاتها هو  
عمرو بن العاص ، وكان في شبابه من أصحاب الرسول  
الذى توفى سنة ٦٣٢ . وقد جاء عمرو من الاراضى العربية  
حيث - ونحن ننقل مرة أخرى كلام الاستاذ كرسويل -

« لم يكن لاهلها العرب قبل الاسلام - فيما يبدو - الا  
فكرة بدائية من فن العمارة ، فلم يكن معبدهم قبل سنة  
٦٠٨ يزيد عن اربعة جدران في قامة الرجل تدور حول  
بئر زمزم ، وبعبارة أخرى كانت الاراضى العربية تمثل  
فراغا معماريا تاما أو يكاد » . وعمرو الذى شرب من ماء  
زمزم كان قائدا عبقرى ، سلس الايمان بدين سلس ، فكان  
في حاجة الى جامع يؤدى فيه صلاته . لاشك انه رأى  
هذه الكنائس التى مررنا بها لتونا على الصورة التى كانت  
لها في الاصل ، انها تختلف عن الكنائس الواقعة الى الشرق  
من مصر في سوريا وفلسطين فهى بادية التقشف مكنونة ،

تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلها الى  
الاقتصار في غموض على الذات .. وقد خصصت سوريا  
وفلسطين بالذكر لان المسلمين ظلوا زمنا طويلا يشاركون



في كنائسها ، يصلون في جانب ، ويصلى المسيحيون في الجانب الآخر

واليوم في الموقع الذي تدبر فيه عمرو كيف يفى بحاجته ، لا نرى الا سورا عظيما من الاجر المغطى بالجص ، كانه مهجور ، له ثلاثة ابواب ، فاذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة أرضها من الرمل ، هذا البهو في الوسط يسمى بالصحن ، انه مصطلح فنى يحسن بنا أن نذكره ، والى امام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الاروقة ، وهي غابة من الاعمدة غير المتشابهة تفتتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين

وهذا الجامع الفسيح العادى البسيط ، كان في الاصل معدا في المحل الاول لاغراض عسكرية ، ليتباح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقيموا صلاتهم في أمن . لم يبق منه اليوم الا اشباح تتراعى في الجامع الذي نزوره ، فلا يكاد يكون قد بقى منه قالب واحد من الاجر أو عمود مستعار من بناء آخر ، لان جامع عمرو كان يوم انشائه ضئيلا بالقياس اليه اليوم ، ضئيلا ليناسب مدينة الخيام ( القسطنطينية ) التي استحدثها عمرو خارج بابليون المسيحية . هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع ، يبلغ طول ضلعه ١٠٠ ياردة ، أما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية ( ٢٩ في ١٧ ياردة ) وكانت أرضه مكشوفة مغطاة بالجص ، وعلى قوائم من جذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين ، كما كان حال بيت الرسول في المدينة ، أما الجدران فكانت من اللبنات . وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه ، ثم أهمل وتهدم ثم تجدد مرة بعد أخرى الى زمن محمد على . وهو اليوم أفضل بداية لجولة في القاهرة الاسلامية

فإذا خرجنا وتلفتنا نبحث عن سيارة أجرة ( وعسير العثور عليها في هذا الحى الفقير ) ورضينا بالسير على الاقدام ، وجدنا انفسنا نطأ ارض أول موقع للقاهرة الاسلامية . كانت مدينة من الخيام نصبها البدو . . حقا انه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أواني فخارية بدائية

وكانت حركة العمران في القاهرة الاسلامية تتجه دائما الى الشمال

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط والى الشمال منها مسافة ميل واحد ، انشئت المدينة الاسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسى . فقد جاء ابن طولون من سامرا ( سر من رأى ) التى شيدها الخليفة المعتصم ، وقد اعياه تتابع الضدام في بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الأتراك ، مدينة لم يسبقها في الضخامة والطموح الامدينة روما العتيقة ، فقد كانت فسيحة الطرقات ، تتقاطع متعامدة ، ولا يزال تخطيطها الهندسى بينا عند تصويره من الجو ، ما اشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم . ولان ابن طولون ، وهو نفسه من الأتراك - قد جاء من هذه المدينة الكبيرة ، فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة ، وكذلك وجد اتباعه جامع عمرو - رغم أنه كان قد زيدت مساحته - أصغر من أن يفي بحاجتهم لاداء صلاة الجمعة . أين هو من جامع سامرا الذى كان يتسع لستين ألفا يصلون جماعة معا

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ في اقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه (اللعب بالكرة من على ظهور الخيل ، أى لعبة البولوا الحديثة ) . خلة واحدة

تؤلف بين العرب والأتراك وهى عشق الخيل ، ولكن الذى كان يؤلف قبل كل شىء بين ابن طولون ورعيته من المصريين هو الدين الاسلامى الذى يطرح الفوارق القومية التى يتعصب لها العصر الحديث وتلح عليه الجاحا شديدا . وكان ابن طولون متدينا ، تقيا ، ورعا . وها نحن نذهب اليوم لزيارة جامعہ

حقا ان وصوله الينا سليما يعد من الخوارق ، هذا المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا لمعبد البارثينون . بل هو عندى يوحى بفيض اكبر من القداسة ، انه اميل فى الشبه الى معبد فرعونى منه الى معبد اغريقى ، فهو يخفى جماله من وراء اسوار لا بد ان يؤمه من المؤمنين من اجتيازاها . وهو مقام على تل صغير ليكون بمنجاة من ماء الفيضان ، ولكنه لا يطاول الاكروبول فى الارتفاع ، فانت تصل الى مدخله عبر طرقات زاخرة بالضجة والزحام - وقد نظمتها البلدية على نحو يكاد يكون دميما . فاذا جاوزنا المدخل الفينا انفسنا وقد شملنا جو يوحى بالسكينة والبساطة وتجانس العناصر، وينكشف الصحن للسماء فتحرقه الشمس وتجلل بالصفار . وفى وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها قبة ترجع الى سنة ١٢٩٦ ، وهى اقل قيمة من القبة الاصلية التى كانت مقامة على عشرة اعمدة من المرمر ، طلبا للجمال وحده لا للنفع ، فنحن نعلم ان ماء الوضوء لجموع المصلين كان مبدولا ميسرا من وراء الجدار القربى للجامع الاصلى . اذا كان الصحن هو بمثابة الصحراء فالفسقية هى الواحة والعقود هى الفأبة التى ترمز لما فى النفس من تشابك المنازع المتضاربة ، فيطالعها فى ظلال الاروقة جو رطيب يشعشع فيه الجدل الروحى ويخيم فيه السكينة الداعية الى

الاستغراق في التأمل والاستعباد ، فالمسلمون الذين  
أخضعوا صحارى الشرق الاوسط لم يالفوا الغابات الا  
قليلا ، راوا غابات النخيل على شاطئ دجلة وغابات شجر  
الارز في جبل لبنان ، الف نادر وقصير الامد ، فهو يتوهج  
في الذاكرة كما يتوهج القرآن الذى نزل في مكة قنينة  
الرمال كلما تحدث عن الحدائق والجنان ، فالسما  
والصحراء والماء والغابة ، هذه الاشياء الاربعة انما توحى  
بشيء خامس ينطوى في وجوده وجود كل الاشياء : الله .  
فانت في هذا المبني لا تستشعر الله في رؤيتك لتمثال -  
فليس في الجامع طبعا تماثيل - او لتفاصيل من زخارفه  
ولو ان الزخارف الجصية حول الشبايك بدیعة الجمال ،  
بل تستشعره في هذا الانسجام الكامل المطلق حيث  
لا عوائق بارزة وحيث تجد كل حنية من حنايا الروح  
رمزها ..

وفي المساحة التى اضيفت للجامع وفي حوض اسواره  
العالية تقوم مأذنة من الحجر الرملی ، كأنها مسخ لطراز  
معماری قديم ، فنصفها مربع ونصفها اسطوانی . وقد  
تعددت واختلفت الاراء في تعيين هذا الشكل العجيب ،  
فهناك راي يقول ان ابن طولون كان رجلا منصرفا الى  
عمل نافع او متحفزا له ، يكره البطالة والمتبطلين وكان  
جالسا ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريد ان يكون  
من طراز جديد غير مسبوق وان تتمثل الجودة في استغنائها  
عن الاعمدة لانها تنتهب عادة من الكنائس ، فراه جلساؤه  
يلهو بورقة في يده ، ويلفها في غير مطلب ، فلما احس انهم  
ضبطوه وهو يعث اراد ان يبرهن لهم انه كان منصرفا  
الى عمل نافع يتدبره ، وقال لهم من فوره « اعمالوا لي  
مأذنة على هيئة هذا المخروط الذى في يدي »

ولكن التعليل الأقرب للعقل هو أن تذكر البرج المخروطى الهائل فى جامع سامرا ، وهو نفسه أحد المناظر العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت فى بابل قائما فى زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع ١٧٠ قدما الى الآن فى افق بغداد . ولكن أن كانت عقود الجامع وهى من الطوب الأحمر المغطى بالملاط والجص ، وكذلك زخارفه فى الاروقة وحول الشبابيك باقية كما كانت فان المأذنة التى تراها اليوم ليست هى التى كانت قائمة فى البداية ،

فمن المستيقن أو يكاد أنها بنيت من جديد على يد السلطان لاجين فى عهد الماليك . والمأذنة ، فى شكلها الذى اتخذته فى عصر أصبحت فيه المآذن تزهر برشاقة تغلو أحيانا فتبلغ حد التخثث ، تمثل محاولة متعثرة للعودة بالمأذنة الى أصلها الذى عرف كيف يقتبس فى غير اختلاط أو اضطراب هذه الخطوط المناسبة التى ميزت المخروط الهائل فى مسجد سامرا . ولم تكن المأذنة منذ انشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة شاذة ، إذ كانت المآذن - هذا الشكل المعماري المستقل - تستفتح أول عهود تطورها على مراحل امتدت قرونا عديدة . وكانت أوائل المآذن أبراجا مربعة حول الكنيسة الكبرى فى دمشق التى أصبحت فيما بعد مسجدا . وكلمة مأذنة فى الأصل تعنى « مكان يستريح فيه الانتباه » وكان يمكن أن تطلق على فئار كمنارة الاسكندرية

والمدينة الاسلامية الثالثة - تلك التى اتخذت لأول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع الى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل ، وكان انشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه . لن يسعفك قطار أو ترام لزيارتها ، ومن الأصوب أن تعدل عن ركوب التاكسى وتعتمد على قدميك ، هذا بفرض أنك زرت جامع عمرو

مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريبا  
لهذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية - متينة عفية - من  
طراز بيزنطى . جناحها المحصن ترتفع فوقهما - كأنما  
تتهلل لنا - مآذن رشيقة أقيمت فى عهد لاحق . كانت  
تتهلل فى الماضى للمجرمين ، هى حقا جسر التنهدات وبعد  
أن كانت تتدلى منها جبال المشائق أصبحت مأوى خفيا  
لسيدى المتولى ، انه قديس يطير فى الهواء من مكة الى  
القاهرة بالسهولة ذاتها التى يطير بها بطل من ألف ليلة  
وليلة ، اليه تكتب العرائض والشكاوى ويزج بأوراقها ما بين  
المسامير وخشب الباب ، اما استجلاب شففته فيكون  
بلف مزق من قماش حول المسامير

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولى يسمى  
« باب المتولى » . وهناك طريقان سهلان يؤديان اليه ،  
كلاهما ممتع لك . فاذا كنت تمشى مرخى القياد ، غير  
متريث لتتأمل اثرا معماريا تقصده لذاته ، وانما تشرب  
بنظرة شاملة هذا السحر الذى تنفثه عمائر ، مسلم لها  
كمالها ، أو تعرضت للبلى فان سيرك فى أى الطريقين  
سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار  
ويناقضان مابقى فى نفسك من جو القبور التى تجلت لك  
تحت أضواء الفجر عند جامع عمرو . . أو من صرامة الجدة  
والاحتشام التى استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه  
الاساسية . وتكفيك نظرة الى أى خريطة لاثار العصور  
الوسطى فى القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين ،  
فهما يتحاذيان أو يكاد ، ويتجهان الى الشمال فيكون النيل  
على يسارك والقلعة وتلالها الجرداء عن يمينك ، وبدايتهما  
واحدة ، فانت تغادر جامع ابن طولون المستعلى فوق رايته ،  
فاذا خرجت من بابه انعطفت الى اليمين حتى تبلغ شارع  
الصليبية الممتد شرقا غربا ، هابطا من الميدان الكبير تحت

القلعة الى ان يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتدادها  
المستحدث حتى النيل

وشارع الصليبية شارع جدير بأن تعود اليه بالليل .  
تري فيه « سبيلا » من طراز تركى ، وحماما عتيقا أسدل  
على بابه - كستارة - بشكير حمام يستعمل كآزار وجامعا  
له قبتان حيث يرقد اثنان متصادقان من رجال الممالك ،  
والافضل ان تكون هذه الجولة الليلية اخر شيء تفعله قبل  
ان تأوى الى فراشك ، وان تكون بسيارة اجرة تسير بك  
على مهل ، ولكننا الان بالنهار ، فأنت اذا تابعت شارع  
الصليبية فى صعوده الى القلعة بلغت مفترق طرق ، ورأيت  
مشربا للشاي - شتان بينه وبين امثاله فى اوروبا رغم  
وحدة الاسم . قد تخير مكانه قبالة « سبيل » انطلق فيه  
فن العمارة التركى على هواه ، حتى لتظن لحظة أنك امام  
منظر فى اواسط اسيا لافى افريقية ، وللسبيل قبة جانبية  
يعلوها هلال ، وخمسة اضلاع بارزة النقوش وفق الذوق  
التركى ، وشبابيك حواجزها المعدنية مصنفة بدقة  
وتداخل بارع . بجانب السبيل دكان يبيع البصل ، يتعهده  
شيخ يعتم بطاقيّة بيضاء . الى جوارى فى مشرب الشاي  
رجل لفه الدبول يحتسى قدحا من القرفة باللبن

ساعيد لك وصف جولتى محددا زمن كل رحلة ، نفعا  
للقرء جاعلا قيامى بها فى يوم معتاد من ايام شهر مايو ،  
والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبدأ أول طريق  
مؤد الى باب زويلة ، يسمى ابتداءه بشارع السيوفية ،  
ثم يمتد مستقيما وان تغير اسمه أربع مرات ، ولا يقطع  
الا شارعا واحدا كبيرا ، وهو الشارع الذى كان يسمى  
من قبل شارع محمد على وأصبح اليوم يسمى بشارع  
القلعة ، فاذا بلغته فجاوزه محاذرا حركة المرور المشتدة  
فيه ، وتابع سيرك فى نفس الاتجاه فانه الطريق ، بعد

اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات ، ماهو الا سوق واحد متصل . اننى امر بدبائح الجاموس وعلى اللحم اختام بنفسجية تتدلى امام جدران بنيت قبل اول استيراد للبباطس - وهو معروض ايضا امامى للبيع - من امريكا للقاهرة ، ثم دكاكين صغيرة يشتغل اصحابها قعودا فى نسج السجاد ، ها انذا ارى صدفه اربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها ، ثم امر بعد قليل ببرميل ممتلىء بالفلفل الاخضر اللامع فيهيح شوقى الى ان اصنع لنفسى « سلطة » متبله ، ثم باكوام من الطماطم ، حبائها كبيرة . شتان بينها وبين طماطم اوروبا التى لاتزيد فى الحجم عن كرة البلياردو - ولكنها تشكلت باعتساف كاجساد الفلاحين فى لوحات المصور بروجل ، ثم اذا بصنى يمرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحا بحزمات خضراء وهو ينادى بصوت عال « نعناع . نعناع » كم هى عسيرة هذه الكلمة على نطقى ، ولكن هاهو عطر جديد يختلط ببقية العطور التى تملا خياشيمى ، ثم امر بجدار تتدلى منه سلاسل من الاحدية والشبابشب والصنادل ، ثم هاهى امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقا اسمه « الدقة » وهى اخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة ، شتان بينها وبين الفلفل ، انها لا تهيج شوقى الى دخول المطبخ . ثم امر بدكان مشيد حديثا بالاسمنت المسلح ، فهو دميم فى هذا المكان ، تعالت على جوانبه كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته . اثريث من جديد حين يتسع الطريق قليلا ويستطيل ، ادخل مقهى امامها سقيفة ، بلدية هى ولكنها مريحة ، عليها لافتة تقول « قهوة محمد ناصف واولاده » واشرب فنجانا من قهوة ناصف التركية « سادة » اى خالصة بغير سكر . على حين يمر امامى خمار يجر عربة محملة بالقدرور الكبيرة ، حشرت فى افواهها



سدادات مكورة من الورق ، هى قدور الفول المدمس ، انه الطعام المفضل الذى يلتزمه المصريون لقطورهم ، يخلط بالزيت ويتبل . ادفع ثمن قهوتى مايعادل خمسة بنسات - ثم امضى فأمر على « قصارى » الاطفال من قبل أن ادخل الى القسم الاخير من الطريق . انه سوق مسقوف « وكلمة بازار الشائعة فى الهند غير مستخدمة فى مصر » . وهذا السوق امتع بكثير من سوق خان الخليلى ذائع الصيت ، فخ السائحين من قديم . فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذى يرسم لك أقرب صورة الى الصدق باقية الى اليوم من حياة الناس فى عهد المماليك . . ابواب ضخمة - متروكة الان مفتوحة دائما - رشقت فيها كرات من حديد ، وكان التجار يفلقونها بالضربة والمفتاح اذا ثارت ثائرة المماليك ، هنا تستطيع ان تشتري بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتذكرك به ، كلها من أجل الدواب ، فهذا السوق متخصص لصناعة اطقم الخيل والحمبر ، والسرج وغطاء السرج والعدار المنسل حول رأس الحصان من خيوط صوفية ، وهى أشياء تقصد أيضا الى الزينة وان بقى لها نفعها وثمرتها معتدل ، ثم اذا بهذا السوق الذى يتسلل اليه - كأنما من مصفاة - ضوء شاحب ، ينتهى فجأة عند باب زويلة . هنا انظر الى ساعتى ، ان مشوارى من جامع ابن طولون - مع حساب تريثى لشرب الشاى عند السبيل ثم لشرب القهوة فيما بعد عند محمد ناصف وأولاده - قد استغرق من وقتى ساعة كاملة ، لاتزيد ولا تنقص

اما الطريق الثانى فهو يتساوى مع الاول فى المتعة ، وان كان أطول واكثر تعرجا ، فلتاخذ شارع السيوفية طريقك ، ثم انعطف فى أول شارع يتجه بك يمينا الى القلعة فتجد جامعين كبيرين - احدهما جامع السلطان حسن

الذى سنزوره فيما بعد - يحيطان بالطريق وهما على حافة وسعاية صغيرة ، فلا تعرج عليها واقطع شارع القلمسة الذى لا يخلو من دمامة ، ثم ادخل شارع سوق السلاح وهو شارع مزدحم ذو ابنية متداعية تريد أن تنقض ، حتى اذا بلغت نهايته اتجه يسارا الى شارع التبانة الذى يمر بجامع الماردانى (١) . ثم يتجه غربا فيحيط باللوب الأحمر ، وهنا تتكرر المساجد والمدارس العتيقة وانفام الموسيقى الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة الجو الاصيل الذى عرفناه . واذا بك فجأة تجد باب زويلة شامخا على يمينك غير مواجه لك

وهكذا تجدنى دائم السعى الى باب زويلة كأنما كانت هذه البوابة هى محط الانظار ، وانها لكذلك ، فهى المدخل الى القاهرة الاصلية

وكما أن لندن الاصلية عبارة عن نواة مسورة فى وسط سوق اقيم حولها ، فكذلك القاهرة ، اتخذت اسمها وطابعها من قطعة مربعة من الارض لا يزيد ضلعها عن ألف خطوة . هذه المدينة الداخلية التى بنيت اصلا لتكون مقرا لشئون

(١) بنى جامع الماردانى فى سنة ١٣٣٩ م وهو يمثل خير تمثيل لقدرة المزيج فى الفن العربى الاسلامى فأعيدته من كل شكل وحجم . . فمنها الجرائيتية الحمراء المأخوذة من المبادئ الفرعونية ، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسيحية القبطية . . وتيجانها محلاة بزهر اللوتس أو بالازهار ذات الطراز الكورنثى بل ان بعضها وضع مقلوبا رأسا على عقب . ولكن الطريقة التى وضعت بها تضي على الجميع وحده تدعو الى الدهشة مع أناقة تؤثر فى النفوس . وهذه القدرة على مزج العناصر المتباينة فى طراز جديد واحد هى إحدى السمات الواضحة فى الفن الاسلامى العربى . كما اننا نرى فى الشريعة التى تفصل بين رواق القبلة من صحن الجامع المحاط بالاعمدة المقنطرة مثلا رائعا فى أعمال الخشب فى القرن الرابع عشر الميلادى وان نجد أكثره . وقد كان الماردانى سابقا للحاكم المملوكى الكثير البذرية الناصر محمد بن قلاوون وزوج احسدى بناته ، ثم صار حاكما على حلب حيث وافته منيته

الحكم والدين ، لا للسكان والمعيشة هي مدينة القاهرة ، وهذه المساحة يحدها شمالا الجزء الشمالى من سورها الاصلى ، وشرقا سور صلاح الدين الذى اقيم فى فترة تالية ، وجنوبا درب الاحمر وامتداده تحت الربع ، وغربا مجرى الخليج القديم

واستمرت القاهرة على شكلها الاصيل مدة قرنين . اما اصل بنائها فمعروف لنا تماما . . فهو اليوم الخامس من شهر مايو سنة ٩٦٩ وهى الليلة التالية لاستيلاء جوهر على مدينتى عمرو وابن طولون باسم مولاة المعز لدين الله . اما جوهر هذا فرقيق مسلم من اصل اوروبى ، ومولاة هو رابع من تولى الحكم من اسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها الى السيدة فاطمة بنت النبى (١) التى تزوجت من على ابن عم محمد واشد أصحابه تحمسا للدين . وانبثقت فرقة من الاسلام . وهى الشيعة - تؤمن بأن الامامة وقف على سلالة على من فاطمة . ويتبع مذهب الشيعة حاليا نصف سكان العراق تقريبا وكل سكان ايران بينما تخلص منه مصر فهى تتبع المذهب السنى ، فى حين كان مذهب الشيعة هو الاساس فى انشاء عاصمة البلاد التى نجتاز عتبتها الان من باب زويلة ، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود فى الضلع الشمالى من هذا المربع الفاطمى لا نزال نقرأ ما نقش عليه بالخط الكوفى « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » وهو ما يدين به المسلمون جميعا ، بضافا اليه « على وصى الله »

اما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة . . ففي ذلك قصة طريفة . فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على اضلاع المربع الذى حدده على الارض بواسطة قوائم

---

(١) لقد توفى كل اولاد النبى المذكور قبل البلوغ

من الخشب ، واوصل اعلى هذه القوائم بجبال مدلى منها  
اجراس ، ووقف المنجمون المغربيون على استعداد  
يتفحصون ادواتهم وطوالهمم الفلكية حتى اذا اطمأنوا الى  
دخول الوقت المبشر بالخير ، حركوا الحبال لتمر عبرها  
الحركة - كتليفون بدائي - فتدق الاجراس ايذاناً بالعمل،  
ولكن الذى حصل هو أن غرابا وقف على الجبل وسبق  
المنجمين فى هزه واعطاء الاشارة ، فانهاالت الفتوس والماعول  
من آلاف العمال تحفر الارض . ولم يكن هناك مجال لمنع  
ذلك ، فاكثفى المنجمون بأن يحسبوا الكوكب صاحب  
الطالع وقت الخبطة العشواء فوجدوه المريخ . ذلك الكوكب  
الاحمر اللون واسمه « القاهر » فاطلقوه على المدينة  
متحدين بذلك النذر التى يحملها معه وبذلك سميت المدينة  
« القاهرة » واجتازت النذر بأمان

ولافراد أسرة المعز صفاتهم المميزة الفريدة ، فهم من  
ناحية من أصل عربى لا تركي ، ومن ناحية أخرى كانوا  
يهتمون بالفن كاهتمامهم بالعلم ، ثم أنهم بحكم شيعتهم قد  
انفصلوا عن بقية العالم الاسلامى . فظهر فى الفن اتجاه  
حسى لم يظهر فى العصور العربية الاخرى ، اللهم الا فى  
ايران الشيعية ، وبدلا من أن نرى الزخرفة العربية  
الجافة ، نجد منقوشا على اوانيهم الخزفية صورا لعسافى  
العود ، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب ، وتظهر لهم  
عيون واسعة وعمائم كبيرة ، كما نجد رسوما لحيوانات  
ايضا ، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف فى  
المتحف الاسلامى

ويتميز الفاطميون ايضا بالسرعة والهمة فى الانشاءات،  
وخير دليل على ذلك ما تراه اذا ما اتجهنا شمالا الى منتصف  
المربع ، ففي السنة التالية لتأسيس المدينة وضع جوهر

أساس مسجد وجامعة الأزهر فى ٣ إبريل فى الجيزة  
الشرقى من العاصمة الفاطمية ، ولم تمر سنتان حتى كمل  
البناء واستقبل طالبى العلم فى سنة ٩٧٢

ولا يزال لهذا الجزء من القاهرة - الذى كان أصلا المدينة  
الفاطمية - سحره وجماله بالرغم مما شوه هذا الجمال  
مااستحدثت بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عن  
انشاءات العصر المملوكى ذات الحقائق الداخلية - وهى  
مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال . وطالما شكنا  
النقاد من أن المصريين لم يبقوا على كثير من قديمهم ، ومنهم  
ستانلى لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عاما ان « المصلحة  
التي تعنى بتخطيط الشوارع انما قامت بمهمتها بأفق  
ضيق من الفكر فى خدمة المدينة » ولكننى أقول ان كل  
مدينة - بله العاصمة - لايمكن ان تظل على حال واحدة  
مثل مدينة محنطة ، فالناشئة من الاطفال يحتاجون لمدارس  
يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة  
بدون الاسمنت واسياخ الحديد ؟ وعلى كل حال فلا يزال  
هناك قدر كاف من الآثار يعطى للذهن مجالا لتصور ماكان  
عليه الحال فى الماضى

اذن فلنأخذ الآن الطريق الذى يقودنا من باب زويلة فى  
الجنوب الى باب النصر فى الشمال ، وخير رفيق لنا فى  
هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى « جولات فى  
القاهرة » فهى ترشدنا فيه - كاحسن دليل - فى لفحة  
سهلة صريحة ، وعن علم خال من الحذقة الى مااحتجب  
من آثار الماضى فى أماكنها غير الجليلة ، وهى قادرة على  
كشف نفائس كثيرة اضطربنا الى اغفالها فى هذا الفصل  
من الكتاب . ولنتركها مع من عندهم فسحة من الوقت  
تطول الى سبعة ايام او اكثر يقضونها فى القاهرة مع كتابها

ونعود فننتقدم فى طريقنا ونترك مستشفى قلاوون والاثار  
البديعة الاخرى التى خلفتها لنا عصور الممالك ونخطو فى  
شارع بين القصرين الذى يصل باب زويلة بباب النصر حيث  
تكافأ فى نهاية مسيرتنا المضية فى الزحام بجامع ثالث  
كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت ظلال الاسوار العظيمة  
مباشرة ..

وهنا يمكن توجيه بعض اللوم الى القائمين على رعاية  
التراث الاسلامى ، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم  
سمى اولا بالجامع الجديد وبالجامع الابهى ولكنه يقف الان  
فى الناحية الداخلية من المدخل الشمالى للمدينة الفاطمية  
وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب . والاسوار  
تغطى الجامع وهى حماء ، فلكى نشاهده بوضوح علينا  
أن نتخذ لنا مكانا فوق احد برجى باب النصر . واعتقد  
أنه لو سئل احد المعجبين بالعرب عما انجزوه ل اشار اول  
ما يشير على الاقل الى هذه الاطلال فى القاهرة . صحيح  
ان فى القاهرة جوامع اكبر حجما ولكنه يتميز عنها أنه  
أقيم لحاكم عربى الارومة ، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب  
بحريق كبير فى مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت  
قرونا ، فى حين كانت الترميمات تافهة ، فسقط كثير من  
الجيص المنقوش عليه بالخط الكوفى ، ومع هذا فله مآذنتان  
مبديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان فوق أبراج مربعة  
متراجعة ، كما انتشر البلى فى المجموعة الكبيرة من الممرات  
المبنية بالاجر تحتها ، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات  
أهمية ركننا من أركانه .

وقد قدمت اقتراحا لاحد المواطنين العرب بضرورة  
العناية بهذا الجامع بدلا من اهماله خصوصا وأنه يقع فى  
مدينة ينادى بها قلبا للعروبة فأجابنى : « ربما كان الكره

الذي لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو المسبب  
في أهمال جامعه »

والحاكم - حفيد المعز - كان أشبه بالامبراطور كاليجولا  
الروماني . انه كان مدللاً شديداً الانانية فتنابه نوبات من  
التعقل والجنون ، ومن التسامح والتعصب ، كما كان مصدراً  
لكثير من المضايقات للناس في التافه من الامور وفي خطيرها ،  
وظل كذلك حتى لقي مصرعه . قتله شخص مجهول في  
الصحراء اثناء تجواله فيها وهو راكب حماره . وكان من  
ضحاياه الاقباط فقتل منهم الكثير ، وبائعو اللوحية التي  
حرمها ، وهى طعام صمغى القوام محبوب عند المصريين  
الى يومنا هذا ، وحرم صنع أحذية النساء منعاً لهم من  
الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً ، ومنع الناس من بيع  
الزبيب وأمر بحرق الكروم وقطعها كما حرم ايضاً اللعب  
بالشطرنج ، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فأمر بقتل  
جميع كلاب القاهرة ، الامر الذى يجعلنى أنفر منه . ولكن  
لا بد أن هذا الوحش المتأله كان يملك هالة من المهابة جعلت  
دروز لبنان يبجلونه الى يومنا هذا ويجعلونه رمزا مجسداً  
للفضائل التى تجمعت فيه . ومع كل فانى اتردد كثيراً قبل  
ان ألج هذا الجامع ليلاً ففيه من الخفافيش البالغ حجمها  
كحجم الدجاج ما تنقض وهى طائرة حتى بالنهار داخل  
البرج المربع الذى تسمو منه الماذنة الى طرفها المزخرف  
ويصدر عنها عجيح يطفى على ضوء المارة في الطريق

وبجامع الحاكم هذا تنتهى سلسلة من الجوامع ذات  
طابع واحد : طابع العزة الدينية ، تماماً مثل جامع عمرو  
وابن طولون ، نبعت من هذا الدين الذى ينزع الى  
الديمقراطية في أحد نواحيه . فكل الناس داخل الجامع  
سواسية لا تفاضل بينهم يندمج فيهم الخليفة ولو حضر

في فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه ، وكانت هذه  
الجوامع تشعر بالروح العسكرية وبالفحولة مثلما كان  
الشعب يجمع بين شعائر العبادة وحمل السلاح ، واعتنى  
بالشعب هنا المسلمين ، فلم تكن وقتذاك جنسية عربية  
وأخرى تركية ، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفًا خلف  
امامهم يسجدون لله كما علمهم النبي العربي

ولكن في جامع الحاكم ما يوحى بأن هناك تغييرا ما .  
ذلك اننا نعلم ان هذا الخليفة كان مختل العقل طافية ،  
ونعلم ايضا أن حراسة الذين خصصت لهم احياء كاملة  
في المدينة صارت لهم سطوة طغت او كادت على سطوة  
الشخص الذي كلفوا بحراسته ، فكانت هذه الرقة في  
عقود الجامع التي توحى بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء  
حتى فقدوها كلية ، وظهرت الرشاقة الى حد الانوثة التي  
تبتعد عن الروح ذات البأس التي نراها متمثلة بوضوح  
في اعمدة جامع ابن طولون اكثر من أى مكان آخر ، فهي  
مؤشرات تدل على ان الاسلام في عهد الحاكم ابتدا في  
الانكماش والدفاع ( انتهت الدولة الفاطمية عندما احتل  
الصليبيون القاهرة لمدة قصيرة سنة ١١٦٣ ) . ولم تعد  
الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ماكانت تدل عليه في  
القرون الاولى عندما امتطى المسلمون خيولهم مشرقين  
ومغربين ، لا حدود تفصلهم عن الدنيا بأسرها ، ثم بدأت  
الفرقة بينهم ، وما كان الخليفة الفاطمي الا واحدا من  
الذين ادعوا حق السلطان لانفسهم ونافسوا في ذلك  
صاحبها بغداد والاندلس

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيارة اجرة، وفي  
طريق العودة . على بعد مئات قليلة من الامتار وفي شارع



بين القصرين الذى اجتزنأه من قبل ندع السيارة تقف بنا هنيهة - بدون أن يبطل عدادها عن العد - عند الجامع الاقمر ، وهو احسن جوامع الفاطميين حفظا ، وله واجهة جامدة ضئيلة الزخرفة كمادة الفساطميين . ولا نتلبث عنده الا قليلا ، ونطلب من السائق أن يتوجه بنا الى جامع السلطان حسن قبل أن يدركنا الليل ، وسيسر حتمسا بمنحة قرش او قرشين زيادة

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريح ان المستوى الحضارى للدين - وليست العقيدة نفسها او تعاليمه - قد ناله بعض التغيير ، كما ان المباني قد تغيرت فى الشكل والروح ، فهذا الجامع لا يقل من جامع ابن طولون فى اظهار قوة العقيدة حتى أن مدخله الشبيه بالدھليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التى صممت لتدخل الرهبة والخشية فى نفوس المتعبدين ويشبهها أيضا فى اقامة هذا البناء المتعالى الضخم لأجل أن يضم رفات انيسان ضئيل . ومدخل هذا الدھليز عبارة عن بوابة ضخمة تعلوها طبقات من المقرنصات المحفورة ، وفى نهايته نجد صحنًا وأسماء مكشوفة للسماء التى تبدو بعيدة لأن الصحن محاط بأربعة ايوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخال أنه محاط بغابة من الظلال . ويوجد الضريح خلف ايوان القبلة فى قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذى كان مستعدا لاستقبال جثمان السلطان حسن ، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بنذير خطر كمثيله توت عنخ آمون فهو كان السابع من ثمانية اولاد خلفهم الناصر محمد الملوك الذى كانت له سطوة وقوة . ولكن ابنه حسنا لم يستطع ان يقيم قاعدة يمسك بها ازمة الحكم بحزم بالرغم مما كان يكنه من عواطف نحو المصريين المسلمين . وكفاه ذكرا انه

أعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلا أيضا على حالة الدول الإسلامية في أواخر العصور الوسطى . . وهذا الجامع ولو أنه بنى خصيصا ليضم مقبرة فخمة لمنشئه فهو يضم أيضا أربعة مدارس ، فعلى كل جانب من جوانب الصحن يوجد باب يؤدي إلى مدرسة يدرس فيها أحد المذاهب الأربعة المعترف بها في المذهب السني، والفروق بين هذه المذاهب صغيرة جدا ولا يمكن أن تقارن بما بين مذهبي السنة والشيعة من اختلاف . ومع ذلك وبالرغم من هذه الرعاية كما نراها في هذه المدارس وفي الميضاة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فإننا نرى فيهمزما للانطواء فالسلطان حسن بالرغم من ميله إلى المصريين كان مملوكا أي غريبا من طائفة لم تندمج مع الشعب سواء كانوا في عز قوتهم مشيدين أو كانوا في قلة حيلتهم متقلبين . من هنا نرى أن جامع السلطان حسن قد قطع بنا شوطا طويلا بعيدا من روح عمرو الذي أقام مدينة من الخيام وبنى مسجدا متواضعا لجنود ولى عليهم وهم معه سواسية . عمرو هذا الذي قدم من بلاد العسرب المحمدية حيث كان النبي يرقع ملابسه في بيت متواضع وحيث شاركت النساء في غزوات الحروب وندوات الأدب، بينما نشأ السلطان حسن على تقاليد دعت إلى حجزهن في « الحريم » . ففي جامعته تجلت الملوكية بأوضح معانيها كما تجلت في وندسور في إنجلترا

أما آخر مرحلة في رحلة اليوم فهي زيارة القرافة شرقي المدينة ، فهنا شغل الماليك المتأخرون بقبورهم وأقاموها خالية من المدارس والميضاة ، إنما هيئت للموت فقط . وكثير منها جميل وكثير أيضا متداع ، وتعددت القباب حتى صارت رمزا لمدينة الموت . وقد ابتدء في زرع

الاشجار فى الاراضى المحيطة ولكن التراب يملأ ما بين  
القبور . هيا نختر واحدا منها . اذن فلنزر ضريح  
قايتباى فعسى ان يكون مفتوحا . وقايتباى واحد من  
الماليك ذوى النشاط عاش فى العصر السابق مباشرة  
للفتح التركى العثمانى . ويمتاز ضريحه بوجود زجاج  
ملون مرتفع فوق الجدران يسمح للاضواء ان تمر الى  
الداخل . . . . . أضواء ليست من صنع مصر

ونكتفى بهذا القدر من التراب ومن ذكر الموت ،  
فالتراب قد زكم الانوف وشعر الانسان ان الدنيا قد  
انقلبت ترابية كلها . فلنختم رحلة يومنا هذا فى فلوكة  
على النيل حتى يفصل النسيم الشمالى كل كآبة أصابتنا  
استعدادا لسهرة المساء . وفى الفلوكة — عندما تقترب  
الشمس للمغيب — نرى مسجدا جديدا بالقرب من  
كبرى يصل بين الروضة والجيزة ، أطلق عليه اسم  
صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلأأ ناطقا باحياء  
العمائر التى تمتد الى السماء على الطراز القوطى

## الفصل الثانى عشر

### القاهرة.. والأمسيات

ان ليل القاهرة يظل عائقا فى الذكر أكثر من نهارها . بل هو مثير للشعور أكثر بكثير من لياالى أوروبا ، ويرجع بعض ذلك الى الطقس ، فحالما تغيب الشمس خلف الاهرامات ، تهبط درجة حرارة الجو هبوطا سريعا ملحوظا سواء كان ذلك شتاء - عندما تكون درجة الحرارة فى النهار حوالى ١٥ درجة - أو صيفا عندما تعلو فوق ٤٠ درجة . وتبدو النجوم أكثر عددا واشد لمعانا بسبب جفاف الجو ، بخلاف ما تبدو فى الاجواء الرطبة . اذن فما هى المتعات التى ننتظر من القاهرة ان تقدمها لنا عندما ينتشر الفان من خفراء الليل الكبار السن ببنادقهم العتيقة يجوبون شوارع المدينة المتطورة ويحرسونها ؟

هنالك أولا ستة عشر مطعما تنتشر على طول النيل ، يتخذ بعضها مكانا فى العوامات والباقي على الحدائق فى الهواء الطلق ، وتظل مفتوحة طول السنة آمنة من الامطار التى لاتهطل الا دقائق معدودة كل عام ، ولو ان بعض لياالى الشتاء قد تبعث القشعريرة فى الاجسام . أما مطعمى المفضل على النهر فهو كازينو الحمام على الشاطئ الغربى فى الجيزة . والجيزة محافظة منفصلة عن القاهرة لها محافظها الخاص بها ، وهو يحرم بيع

المشروبات الكحولية في شهر رمضان عندما يصوم أتقياء المسلمين عن الطعام والشراب طول ساعات النهار ، في حين يسمح بذلك محافظ القاهرة ( في بعض الاماكن التي يرتادها السائحون ) . وعلى ذلك فلك الحرية ان تطلب - طوال العام خلاف ذلك الشهر - ماشئت من البيرة والزبيب (١) والنبيد المصرى . وعصير الكروم المصرية في الحقيقة يستحق شهرة خلاف ماهو عليه ، فمزارع جناكليس في الدلتا تنتج انواعا متعددة من الانبذة الحمراء والبيضاء بأسعار معتدلة ، وهى بالتأكيد أجود بكثير من الانبذة العادية المنتشرة في فرنسا . وعمر الخيام هو أحسن الانبذة الحمراء كما أن كلوس نسطور أحسن البيضاء . والصنف الوحيد الذى تجده في المطعم ليؤكد بجانب النبيد هو الحمام المشوى على الفحم ، وقد اتخذه الكازينو اسما له ، فاذا أخذت في تناول طعامك أحاطتك - تراقبك بصبر - فرقة من القطط هى حتما نتاج تلك التى كان يقدسها الفرائسة ، ويظلك وأنت جالس حفيف أوراق شجر الكافور ، بينما تنساب بجانبك - حتى تكاد تلمسها - الفلائك والمراكب ذات الأشعة تحركها الرياح رائحة غادية تحمل حمولتها من البضائع ..

ولست القاهرة مدينة يقصدها المهتمون بفنون الاكل وتذوقه ، فمطاعمها - خاصة تلك الملحقة بالفنادق الحديثة - تقدم الطعام الغربى المعتاد الذى تتفاوت درجة جودته من جيد الى متوسط ، ثم انها تقدم لك

---

(١) الزبيب هو الانتاج المصرى للسائل عديم اللوز الذى يتحول الى لون ابيض منذ خلطه بالماء . وهو معروف باسم أوزو لى اليونان . وراكت فى تركيا . ويسمى فى البلاد الاخرى بالعرقى

الاطباق باردة حتى طبق الاولييت ، فاذا اصررت - كما  
افعل دائما - على تقديمها ساخنة فاعلم ان الظن فانها  
ستقدم لك شديدة الحرارة تصدك عن لمسها وتضطررك  
للانتظار حتى يمكنك الاكل . والحد من استيراد الكماليات  
يعنى اختفاء بعض الانواع مثل الجبن الفرنساوى او  
الايطالى . ولكن اللحوم المصرية جيدة خصوصا لحم  
الضأن الصغير كما ان هنالك انواعا ممتازة من الاسماك  
تأتى من البحرين المتوسط والاحمر ويقال ان كمية  
الفسفور العالية فى البحر الاحمر هى السبب فى ضخامة  
حجم الجنبرى السويسى

ويمكن معرفة بعض الطرق الشرقية فى تحضير الاطعمة  
بتناولها فى المطاعم البلدية . واذا كانت باريس مركزا  
تجتمع فيه مدارس الطهى الغربى فان استنبول هى  
الأخرى تعد مركز تجمع للطهى الشرقى لا يقتصر عليها  
فقط بل تمتد فروعه الى كل الولايات التى كانت تابعة  
للامبراطورية العثمانية السابقة ، أعنى اليونان وسوريا  
ومصر ، وأنى شخصيا أضع الطعام المصرى فوق اليونانى  
واقبل قليلا من اللبنانى ، فتجد فى المطاعم البلدية الكفتة  
والكباب وهما أشهى اصناف اللحوم ويحضر كل منهما  
من لحم الضأن ، أما الكفتة فتحضر بقرم اللحم ثم شيه  
فوق شواية ، أما الكباب فيشوى اللحم فى قطع صغيرة  
مشفرة ، وتجد ايضا الملوخية وهى جذيرة بأن يتدوقها  
المرء وهى نوع من الخضروات الغروية التى سسبق أن  
ذكرنا أن الحاكم - ذلك الخليفة المجنون - قد حرم  
اكلها . وصنف آخر هو طبق المخ والكبد المقلين وتجده  
فى مطعم صغير بالقرب من باب اللوق ، أما الكوارع وهى  
تحضر من حوافر الماشية فلم تمر من بين شفتى ولذلك .

لا يستطيع أن أحكم عليها . .

وتوجد مطاعم كثيرة نظيفة للوجبات الاقتصادية التي يقبل عليها القاهريون ، وهى مطاعم الفول المدمس والطعمية . وتصنع الطعمية على هيئة كرات صغيرة من خليط مكون من فتات الخبز والفول المجروش والبصل وبعض الاعشاب العطرية وتضاف اليه الخميرة ليصير هشاً ناعماً ثم ترش الكرات بحبات السمسم وتقلّى فى الزيت . وفى هذه المطاعم يمكن للشخص أن يتناول كفايته من الطعام بما فى ذلك رفيف بلدى مستدير وسلطة بما تعادل قيمته اقل من شلن ( خمسة قروش )

ها نحن الان قد فرغنا من تناول العشاء ، والمعتاد فى القاهرة أن تعوض كمية الطعام ماينقصه من الجودة . فماذا بعد ذلك ؟

يجيب القاهريون على هذا السؤال بطرق مختلفة ولكن الامر المعتاد هو أن يقضى النساء أوقاتهن فى البيوت فى حياكة بعض الملابس الخاصة او فى مشاهدة التلفزيون او الاكتفاء بالتحدث مع غيرهن من النساء . أما الرجال فيتوجه كل منهم الى مقهى من ضمن ستة آلاف مقهى منتشرة فى المدينة ليشرب الشاي ويقطع الوقت مع غيره فى لعب الطاولة او فى مشاهدة التلفزيون او مجرد الحديث ، وهذه متعات تلزمهم الجلوس ولا تنطلق بهم . غير أن الشبان صاروا ينتمون الى الاندية الرياضية ليمارسوا بعض الالعاب ، والا فانهم يزحمون الارصفة عند مداخل دور السينما

وامسية الخميس هى امسية السينما بلا منازع لان الجمعة هو يوم الراحة . وفى القاهرة اثنتان وتسعون داراً للسينما يختار المرء منها ما يحلو له ، وجمهور

السينما في العواصم العربية لا يقل حماسا لها أبدا عن أمثاله في البلاد الأخرى . والقاهرة هي المدينة العربية الوحيدة التي توجد فيها صناعة سينمائية ضخمة فقد أنتجت استوديوهاتها التي تقع على طريق الأهرام أفلاما منذ العشرينات . وكان الإنتاج في بعض الستين يزيد على مثيله في بريطانيا ، الأمر الذي جعل بعض المخرجين الرواد مثل يوسف شاهين يبدى أسفه لأن الكثرة طغت على الجودة وسلبته المقدرة على الوقوف بجانبها . وياخذ الفن السينمائي المصري أسلوبا واحدا لا يغيره . ولى تجربة شخصية مع هذه الصناعة عندما كانت تحت السيطرة الرأسمالية ، فقد دعتنى صديقة لثناول الغداء مع أحد المنتجين الكبار وهو من أصل شامي بدأ حياته في تصميم زينات لشعور السيدات ( وربما كانت جوستين إحدى عميلاته - البطلة الروائية في رباعية لورنس دوربل ) ثم خصص نفسه لتصميم الأفلام للملايين العرب .

وطلب منى قائلا « أريد قصة يامستر ستيوارت تليق بنجمتين الكبيرتين فاتن حمامة وشادية ، وستكلفاني معا نصف ميزانية الفيلم ، لذلك أطلب أن تحتوى القصة على شيء جديد مبتكر » . وقد سبق أن شاهدت هاتين السيدتين ، أحدهما - فاتن - متزوجة من عمر الشريف الذي لعب دور الشيخ في فيلم لورنس ، وهى فيما اعتقد أشد الممثلات إخلاصا لعملها ، والأخرى - شادية - فتاة ظريفة تبدو مرحة ولها صوت رفيع

سألت « أطلب شيئا واقعيا ؟ »

فرفع يديه بأظافرها الملمعة فزعا وقال « أعوذ بك يامستر ستيوارت . أرجوك ان جمهورنا من الطبقة الفقيرة وعندهم مايكفيهم من الواقعية ، انما أريد لهم



أن ينطلق بهم خيالهم بعيدا عنها »

وهذا لا يطابق الواقع كما شاهدت في الافلام المصرية ، ولكننى كنت فى ذلك الوقت محتاجا الى المال - كما تعلم بذلك صديقتى - وكان ما عرضه على - مقابل عشرين صفحة - ما اقنعنى . الا أن صديقا حذرني ناصحا : « خذ حذرك فانهم سيدفعون لك أجرتك عن كل مرحلة من العمل الا الاخيرة منها » وقد تبين صدق قوله فكنت لا أنال ما أستحقه الا على أقساط ضئيلة وبعد الحاح وكلما اتصلت بالمنتج تليفونيا فاما أن يكون « نائما » او « متغيبا فى سوريا » . ولما انتهيت من القصة وبقي لى ثلث ما أستحقه قيل لى فى نبرة استياء « كان يمكن لابنى أن يسطر فى صفحتين ماملات به عشرين صفحة ، أما عن لغتك الانجليزية فان ابنتى وهى طالبة فى الجامعة الامريكية تقول أن المستر ستيوارت يكتب لغة انجليزية جيدة ولكنها ليست بالانجليزية الخالصة »

وماذا كان فى مقدورى أن أفعل . لقد كنت غير فخور عن هذا السيناريو غير الواقعى . ألم أظهر شادية فى أحد المناظر وهى محرومة من الاولاد تبكى وفى يدها كتاب مفتوح من كتب الاطفال جالسة على أريكة من طراز لويس السادس عشر ، فاذا انتهى هذا المشهد المرسوم تجف الدموع وتتحول الى بسيمات ونرى شبانا فى سياراتهم وطائراتهم ثم تنتهى بهم حبكة القصة بفصل الدموع بالغناء والرقص . وقد مثلت كل من فاتن وشادية دورها جيدا

وقد مثلت فاتن أيضا فى فيلم « دعاء الكروان » وهى تراجيديا تدور وقائعها فى الصعيد الفها الاديب الكبير الدكتور طه حسين . واخت فاتن فى القصة بفويها محام

فتنهض هي للانتقام منه ، وكان النصف الاول من الفيلم واقعيا الى درجة تظهر فيه الاقدام حافية تحوطها الخلاخيل . الامر الذي لم نسمع به من قبل . وهبط النصف الثاني ، وفيه نرى المحامي يصطحب فاتن - التي نراها في زى سيدات الزمالك - الى نزهة على شاطئ البركة ، وهو مالا يخطر مطلقا على بال احد في الصعيد المحافظ

ولعبت شادية بعد ذلك دور فتاة من بنات الليل في احسن فيلم - في رأيي - أنتج الى الان ، هو فيلم « اللص والكلاب » كتب قصته نجيب محفوظ حول شرير تطارده الصحافة ، وهو سفاح أصيب بلوثة وانتهى به الامر بأن حوصر وقتل بالرصاص تماما مثل ما حدث للمجرم الامريكى ويللنجر . وقد رمز نجيب محفوظ بهذا القاتل عن الشخص الحديث الحائر الذي خانه مرشده وتخلى عن مبادئه . ومن العجب أن هذا الفيلم قد خلا من مواقف المرح المصطنع والفقرات الخطابية الجوفاء ، فجاء السيناريو سريع الحركة قاسيا مثيرا قليل الحوار ... ولم يكن سبب انحراف البطل تافها فقد دفعه اليه - اثناء عمله كخادم في بيت الطلبة - طالب يسارى لا يقيم وزنا للقيم الروحية . وكان هذا الطالب يعتقد أن المبادئ الاخلاقية قد بليت وعفى عليها ، وأن اللص في البلاد الرأسمالية حينما يسرق انما هو شخص تقدمي ، وهي افكار قد عفى عليها في الغرب ولكنها لانزال تأخذ بقلوب بعض الاشخاص . الا أن هذا الطالب يفدو صحفيا ناجحا ويتزعم حركة مطاردة تلميذه الذي طبق دروسه بحسن نية ، ثم ينشر صدره عندما يبلغه تبأ مقتل المجرم . صرعه رجال الشرطة برصاص

المدافع الرشاشة بجوار جدران جامع الجيوشى . ولم  
يكنه أحد سوى بائعة الهوى

وهناك علامات توحى بأن الاسلوب المعتاد الذى يسيطر  
على قصة الفيلم المصرى لم يعد له مجال كبير ، وظهرت  
مناقشات فى الصحف كان اتجاهها ضد الاعتماد على  
أسماء النجوم فقط لما تبين - كما أخبرنى صديقى  
المخرج - أن ذلك كان يستغرق الجزء الأكبر من ميزانية  
الفيلم الضئيلة ( حوالى ٢٥٠٠٠ جنيه ) فلا يبقى إلا  
القليل لكاتب السيناريو وبقية الفنانين المتخصصين ،  
كما أن أكثر النجوم ليست لهم قدرة فنية كبيرة ، لأن  
خبرتهم فى التمثيل نبعت نتيجة لاجتهادهم الشخصى ،  
ولم تنبع نتيجة للتدريبات المنتظمة فى دور التمثيل  
التعليمية . وقد يقفز أجر الوجه الجديد المبندى ...  
إذا لقى حظوة لدى الجماهير من ١٥٠ جنيه فى الفيلم  
الاول الى ألفين من الجنيهات فى الفيلم الثانى ، ثم يملأه  
الاطراء بالفروور طول حياته ، مالم يكن - مثل عمر  
الشريف - صاحب موهبة حقيقية

ويمكن القول بأنه لن يتم انقاذ الفن السينمائى المصرى  
والنهوض به الى المستوى الذى يجعله جديراً بالتقدير  
فى الدوائر السينمائية العالمية الا عن طريق النهضة  
المسرحية التى تعد الظاهرة الثقافية الكبرى فى مصر والتى  
استمرت قوية منذ ظهورها فى أوائل الستينات

وقد ظهر التمثيل المسرحى فى مصر فى نهاية القرن  
التاسع عشر واستمر بشكل أو بآخر حتى سنة ١٩٥٢  
فلا نجد فيها سوى مسرحين جادين فقط ، أما الآن فهناك  
ما لا يقل عن ثمانى عشرة فرقة مسرحية تعمل على أربع  
عشرة داراً مشيدة للتمثيل ، وهذه الفرق قابلة للزيادة .  
وتختلف المسرحيات التى تقدم على مدى واسع ابتداء

من الكوميديات المحلية التى تتخذ فيها عناوين مثل « بابا مايعرفش » الى ترجمات من بيكت ويونسكو . ومن هذه المسارح مسرح الجيب الذى انشئ ليعرض المسرحيات العالمية الطليعية ، كما انشئ مسرح توفيق الحكيم ليعرض مسرحيات الكاتب المسرحى الاول فى مصر ، وكذلك انشئ معهد عال للفنون المسرحية يتخرج منه ممثلون شبان يجد كل منهم عملا - بضمان من الحكومة - حال تخرجه . وقد اجريت حديثا مع الوزير المسئول عن الثقافة فى مكتبه فى أحد الادوار العليا من مبنى التليفزيون العربى على النيل مندوبا عن هيئة الاذاعة البريطانية شرح فيه اتجاه الحكومة نحو الثقافة فقال:

« منذ قيام الثورة صارت مقاليد الحكم فى ايد مصرية صميعة ، وذلك لأول مرة منذ العصور الوسطى . وهدف الحكومة هو تعميم حد أدنى من الثقافة بين جماهير شعبنا جميعا ، ولا تبرر اقامة شخص فى أسوان أو حتى فى واحة سيوة أن يكون بعيدا عما يجرى حولنا فى العالم الحديث ، بل يجب أن يكون على بيئة من ذلك ، اما بقراءة الصحف أو حتى بمشاهدة التليفزيون ، ونحن سنوجه مجهودنا الأكبر - بدون أن نستحيى من ذكر ذلك - الى الجمهور الكبير لأننا نعتقد أنه عندما يتمكن جميع أفراد الشعب من معرفة القراءة والكتابة وأن يفهم جميعا حد أدنى من الثقافة فقد كونا بذلك قاعدة عريضة قوية يمكن أن نبني فوقها الى أن ينتهى بنا البناء الى قمة هرمية من الكفاءة العالية »

وهذه المحاولة الواعية لجعل القاهرة مركزا للاشعاع الثقافى لجميع أنحاء البلاد يظهر واضحا فى الموسيقى ، وبشكل أوضح فى الفنساء . وقد كانت الكلمة طوع فصاحة العرب دائما ، وفى نفس الوقت تؤثر بسهولة

على عواطفهم ، وكان الشعر هو الفن الصحراوي  
الفد ، وفي مصر المثقفة الان تفلقت أغاني أحمد شوقي  
وأحمد رامى الشعرية في الجماهير العريضة باستماعها  
الى صوت سيدة فريدة هي السيدة أم كلثوم ، وهي  
الان في الخمسينات من عمرها ، ولها معجبون في العالم  
العربي كله . ومن عاداتها أن تقيم حفلاتها في الخميس  
الاول من كل شهر فتمتلئ المقاهى من بغداد الى  
مراكش انتظار لأغنياتها الجديدة . ويوجد في القاهرة  
بالقرب من ميدان التوفيقية مقهى أم كلثوم ، وهو من  
ثلاثة طوابق ، الأرضي منها مفتوح على الشارع وهو  
مقهى عادي بأنواره وضوضائه ، والطابق الثاني خافت  
النور وبه مسجل للصوت ينساب منه صوت أم كلثوم  
قويا يستمع اليه شباب من الطليعة وموظفى الحكومة  
والجنود ساعات متواصلة وهم جالسون يرتشفون  
القهوة في هدوء ، أما الطابق العلوى فالنور فيه اشد  
خفوتا يجلس فيه المدمنون على الاستماع في خشوع  
تام حيث تعتبر مجرد الهمة بخسا في محراب الفن

أما بخصوص الفنون الشعبية فقد اتجه تشجيع  
الدولة لها نحو التهذيب دون البتر أو الحجر أى - على  
حسب التعبير الفرويدي - ان الدولة أخذت وظيفة  
الآنا ( السوبر ايجو ) أى النفس الحكيمة التى تضبط  
وتنظم « الاد » أو الفرائز اللاشعورية التى تهيمن على  
الجماهير . وقد طبق هذا التهذيب على الرقص

ولكى ندرك هذا الموقف يجدر بنا ان نرجع الى أوائل  
القرن التاسع عشر عندما ألف لين كتابه عن عادات  
المصريين . ففي ذلك الوقت ذكر لين أن الراقصين  
كانوا صنفين : الاول منهما يتكون من القوازي وهن  
نساء قبيلة معينة كن يرتدين عند الرقص زى السيدات

التركيات الانبيقات في ذلك العهد ، وهو عبارة عن سراويل واسعة وصديرية وحزام يغطيها كلها قفطان ذو اكمام مدلاة مشقوقة ، ويضعن فوق رءوسهن قلنسوة منبسطة . وقد تتبع لين اصولهن حتى العصر الروماني . وكن مطلوبات للرقص امام الضيوف الرجال في حفلات الزفاف . وكتب لين الوقور « اما عن رقصهن فيكاد يكون خاليا من الاناقة ، واهم ما يميزه هو هز الارداف هزا سريعا من جانب الى آخر »

وحيث أن التقاليد المحافظة النابعة من الدين في ذلك العهد كانت لا تسمح باختلاط الجنسين ، فما بالك برقص النساء امام الرجال حتى ولو كن من طائفة احترفت هذه المهنة من قديم الزمان . فان ذلك استدعى ظهور الصنف الثاني من محترفي الرقص للتغلب على هذا الامتراض واعتبره بعض الفيسورين افضل قليلا من الاختلاط . وهذا الصنف يتكون من رجال من اهل البلاد يتزويون بزى النساء وينتحلون شخصيتهن ، وعلى ذلك يؤدون نفس الحركات التى وصفناها عند ذكر رقص الغوازي ، وعلى نفسمات الصاجات مثلهن تماما ، وحتى لا يشتبه على البعض فيعتقد أنهم من النساء حقيقة فقد تخير هؤلاء الراقصون لزيهم لباسا يتفق مع مهنتهم غير الطبيعية ، يخلط بين ملابس الرجال وملبس النساء ، ويتكون عادة من صديرية ضيقة وحزام مع نوع من « الجونلات » . . الا أن منظرهم العام يوحى بأنه نسائي أكثر مما هو رجالي لانهم يطلقون شعورهم ويجدلونها - كما تفعل النساء - على شكل ضفائر نسائية ، وينتفون شعر الوجه عندما يبدأ في الظهور ، وكانوا يقلدون النساء أيضا في تكحيل العيون وصبغ الكف بالحناء ، ثم انهم

بعد الانتهاء من أداء رقصاتهم ، يتحجبون أثناء سيرهم في الطرقات لا استحياء من مهنتهم بل احكاما في تقليد النساء . وكثيرا ما كانوا يفضلون على الفوازي للرقص امام الدور او في افنيها الواسعة في مناسبات الزواج او انجاب الاولاد او الختان ، وكثيرا ايضا ما كانوا يزاولون مهنتهم في المهرجانات الشعبية العامة

أما رقص البطن المنتشر في النوادي الليلية الحديثة ( وفي القاهرة منها خمس وعشرون ناديا ليليا ) فهو آخر مرحلة من تطور رقص الفوازي ، وبدلة الرقص ليست من تقاليد البلاد في شيء ، إنما هي اعتقادات خاطئة في اذهان بعض مصممي الازياء الاوروبيين ابتدأت عندهم عند عرض منظر الرقص في اوبرا « عابدة » . وهذه البدلة تبدى جزءا عاريا من الجسم بين غطاء الصدر النحاسي اللون وبين الجزء السفلي الشفاف . وفي عهد فاروق كان كل معجب براقصة يرمى تحت اقدامها بعملات ذهبية رقيقة كصفائح الصفيح فتأخذ كل راقصة ما يلقي عليها من عملات وتثبتها في بدلة رقصها كالترتر

وكانت المنطقة العارية من البطن اول ضحايا « التهذيب » الحديث ، فصدر قرار بعد الثورة بوجوب تغطيه هذا الجزء من البطن بالشاش أو بالتل . وحاول عبثا بعض ذوى الافكار النظرية خلق نوع من الفن « الخالص » من هذه الرقصة المثيرة للفرائز والتي تأخذ في أسوأ حالاتها شكل هزات كانها الرعاشات على توقيعات سريعة من ضربات متلاحقة على الطبول . وكثيرا ما نجد عازفا كفيفا في الفرقة الموسيقية ، ولا يقتصر أداء رقص البطن على النوادي الليلية مثل الموجود في فندق هيلتون ، بل يمكن مشاهدته في أي

حفل زفاف في المدينة حيث تهتر البطون العارية مع نفس الحركات والإيماءات المتوارثة كما كانت من قبل على الدوام . ولا يزال في الامكان استخدام الراقصين الرجال المتزيين بزي النساء ، وقد تركوا شواربهم تكبر وشعورهم تنمو الى جدائل طويلة وينتفون حواجبهم وصاروا يعرفون الان باسم « ابو الفيظ » بدل اللقب الذي كان يطلق عليهم سابقا لانه صار الان نوعا من الشتائم والاهانات ذلك انه أصبح يطلق على المخنثين من أصحاب الشدوذ الجنسي

واذا كانت الفوازي والمتشبهون بالنساء مظهرين من مظاهر « الاد » أو الفريزة فان فرقة رضا للفنون الشعبية تحظى بالقبول لدى « السوبرايجو » أو « الانا » وكان السبب في تكوينها أن فرقة أوبرا بكين زارت القاهرة بعد اعتراف مصر بالصين الشعبية مباشرة ، وعند وجودها في القاهرة قدم السفير الصيني دعوة « لفرقة مصرية راقصة » أن تزور بلاده . وسببت هذه الدعوة حرجا حيث لا يمكن التفكير مطلقا أن ترد الزيارة فرقة من الفوازي أو المتشبهين بالنساء ، ومن ناحية أخرى لا توجد فرقة أخرى صالحة ، ولكن لم يلبث هذا الحرج طويلا حيث بادر كل من محمود رضا وزوجة أخيه فريدة فهمي وكونا فرقة راقصة بسرعة. تستحق الإعجاب ، ونالت هذه الفرقة شهرة عند الجماهير نتيجة لحبهم اياها . وقد تكونت هذه الفرقة في مبدأ أمرها من طلبة جامعيين ( وقد سبق لمحمود رضا أن قام بالرقص لمدة عام في باريس مع فرقة ألفريدو الاريّا الأرجنتينية الراقصة ) وتعرف الفرقة الان « بفرقة الجمهورية العربية المتحدة لفنون الرقص الشعبي » وكما جاء في جريدة « الارباب او برفر » عنها فان الفرقة



« قدمت في السنة الماضية باليه كاملا باسم « عروسة النيل » تحكى قصة عاشقين قرويين - على غرار روميو وجوليت - ولكنها تنتهى نهاية سعيدة . وصار هذا الباليه محور عروض الفرقة في تجوالها في المانيشا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفيتى حيث قدمت سبعة وعشرين عرضا ، واشتركت الفرقة في يوغوسلافيا في مهرجان للرقص الشعبى وحازت على الجائزة الاولى »

اما الفن الشعبى الآخر وهو القراجوز فقد تغير هو أيضا تغييرا شاملا مماثلا لما حصل للرقص ، وهو يشبه عروض باناش وجودى فى بريطانيا ، وكلمة قرة جوز - وهى كلمة تركية تعنى « العيون السود » - كانت اسما لاحد مهندسى صلاح الدين ، ولكن لا نعرف كيف اطلقت على هذا الفن الذى تنوّه بنا أصوله الاولى عند السهول الصحراوية على مشارف الصين . وكان القراجوز يعرض على طريقة خيال الظل فكانت عروضه لا تقام الا ليلا كما ذكر لين في كتابه المذكور . وقد عثر على مجموعة جميلة من عرائس القراجوز في حفريات في الفيوم ( على بعد ساعة بالسيارة من القاهرة ) وهى الان موجودة في برلين ، وقد صنعت في القرن السادس عشر لتسلية أحد البكوات المماليك . وتمتاز ببريه في اليونان الان بعروض القراجوز في شكل خيال الظل وعلينا أن نتوجه لهذه المدينة اذا رغبنا في مشاهدة هذا العرض فنشاهد أشكالا شفافة ملونة مصنوعة من الرق وهى تلعب كوميديات غالبا ما تكون مخلة بالاداب . أما في القاهرة فلا يزال القراجوز يطلق على عرض للعرائس مثل « باناش وجودى » تصاحبه جلبة عالية ، ويطوف في شوارع المدينة بصحبة بعض البهلوانات وعازفى الصندوق الموسيقى - البيانولا - الذى تزينه صور

سيدات على الطريقة النابولية . واعرف شخصا اثنين ممن يحترفون هذا الفن من العرائس القفازية الذين سرعان ما يجذبان جمهورهما بأصواتهما ذات النبرات العالية نحو كشكيهما ذوى الالوان المبهرجة ، ويندمج الاطفال فى بعض الاحيان مع هذه العرائس الى درجة أن يقفز من بينهم طفل يحاول أن يقرص واحدة منها تحت السرة تكون قد انارتة ، الامر الذى يبعث السرور عند مرتضى القهوة الجالسين على شرفات المقاهى

وكما امكن تهذيب وقص الغوازى ، والمتشبهين بالنساء الى فن من الرقص الشعبى، كذلك امكن تطوير القراجوز الى مسرح للعرائس تحت اشراف وزارة الثقافة . وكانت فرصته التى ساعدته على الظهور انشاء مسرح خاص بانواره التى يمكن التحكم فيها . وفى يناير سنة ١٩٦٣ الف صلاح جاهين - أحسن رسام كاريكاتورى واضخمهم أيضا - رواية « حمار شهاب الدين » لهذا المسرح وهى قصة خرافية وقعت حوادثها فى بغداد ولكن على أحدث التقاليد . وكانت الاضاءة بديعة وتحريك العرائس بارعا . ولكن بالرغم من براعة صلاح شاهين كرجال وليس كرسام كاريكاتورى فقط فان من كتبت هذه الرواية تحت رعايتهم اشتروا عليه ألا يأتى بأى فحش فى القول أو عنف أو نكات ذات ثورية . فكان هذا الوفاق سببا فى فقدان كثير من المميزات الخاصة بهذا النوع من الفن والتى نجدها فى العروض الشارعية . وهذه الأخيرة التى لا تنتفع بأية مساعدة مالية من الدولة تذكر - أو هى تعرف بالغريزة - بديهة دورانتى استاذ فن العرائس العظيم فى القرن التاسع عشر الذى يقول فيها « ماؤديه العرائس هو أهم الف مرة مما تنطق به »

## الفصل الثالث عشر

### العلم والتعليم

ظلت القاهرة طوال الفسنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم في أفريقية ، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام ميزة خارقة ، ذلك لأنها صدارة على عدد قليل جدا من معاهد العلم في تلك القارة . ولكن هذه الميزة زادت جدارته في المائة السنة الأخيرة

ويأتى تفوق القاهرة في مضمار نشر العلم نتيجة لانشاء الأزهر في السنة التالية لدخول الفاطميين إلى مصر ، وكان انشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والاسلام وأفريقية ، فحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل في قيام الأزهر ونذكر اسمه كاملا فهو جوهر الكاتب الصقلي (١) ، وينطق المصريون الجيم في اسمه جامدة ولا يعطشونها كما تعطش في كثير من البلاد العربية

وقد اتسع الأزهر ( جامع الأزهر ) كثيرا على مدى الأعوام والقرون ، أما الجامع فيحتوى على تعويذة عجيبة ، هي عبارة عن رسم لطيور موجودة في أعلى أعمدة ثلاثة من أعمدته ، وذلك من أجل منع الطيور

---

(١) معروف في كتب التاريخ العربية بجوهر القائد الصقلي لا بجوهر الكاتب . ( الترجمة ) فهو صاحب السيف الذي فتح مصر للفاطميين

الحية من اتخاذ اعشاش لها داخل مبانيه . وكما بنيت كليات اكسفورد أصلا حول الكنائس والمحاريب ( ولم تخطر فكرة انشاء بيوت مخصصة لمعيشة الطلبة الا فيما بعد ) فكذا كان المسجد هو النواة التي امتد الازهر حولها فخرج من نطاق التعويذة وأصبح لا شيء يحول دون زقزقة العصافير ان تنازع انصراف الاساتذة الى اللقاء محاضراتهم . ولكن على حين ان اكسفورد - التي قامت بعد الازهر - اخذت تتقدم وتتطور سريعا بعد القرن السادس عشر فقد بدا أن الازهر ظل راكدا ، كبلته التقاليد الموروثة وان اعترف لها بأنها تشتمل على محاسن كثيرة ، ولا يزال العلم في الازهر يروغ زائره الى اليوم حين يرى أستاذا مبجلا مهيبا يتحلق حوله تلاميذه وهم قعود على الأبسطة في الجامع الكبير . ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلقيا ، فهي مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقه الإسلامي

أما الطلبة انفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم ، ولكل قسم مكانه الخاص به ، للاقامة والدرس داخل الازهر ، وتسمى امكنة الاقامة بالحارات وامكنة الدرس بالأروقة . والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة . واليك بيان اقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر :

رواق الصعايدة ( مصر العليا ) - رواق المجاورين ( مكة والمدينة ) - رواق أبناء السودان ودارفور - رواق الشوام - رواق أبناء جاوة - رواق أبناء أفغان ، رواق المغاربة (شمال افريقية) - رواق أبناء الصومال - رواق الأتراك - رواق الأكراد - رواق أبناء الهند - رواق أبناء بغداد - رواق أبناء النوبة - رواق أبناء

الواحات والفيوم . أما الإيرانيون فلم يكن يفد منهم احد لتمسكهم بالمذهب الشيعى ، فالأزهر وان نشأ على مذهب الشيعة قد تحول الى مذهب أهل السنة بعد زوال حكم الفاطميين . حقا هيئات أن نجد في الماضي أو الحاضر جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم ( الكاثوليكية في المسيحية ) تضم مثل هذا الحشد الهائل من الطلبة الذين يضمهم الأزهر من بلاد مختلفة .

أما تأثير الأزهر - حتى قلى أيام تخلفه - فعظيم ، لان أئمة الدين في المجتمعات الإسلامية المختلفة في أنحاء العالم اتخذوه منارا وعدوه ينبوعا لأصول الدين قبل تفرق المذاهب ( كالارثوذكسية في المسيحية )

وهناك مرحلتان رئيسيتان مر بهما الأزهر في محاولة تجديده ليلائم العصر ، الاولى بتأثير من الشيخ محمد عبده في العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، اذ جعل للأساتذة مربيات ثابتة دائمة ، وأضاف بمجهوداته كليات جديدة . أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الأزهر يعودون الى كل ركن من أركان افريقية وآسيا غير مؤهلين الا لتدريس الدين واللغة العربية ، ورأى الرئيس جمال عبد الناصر ومستشاروه أن في استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة - كل واحد منهم في موطنه - لا باقتصاره على تدريس العلوم الدينية وحدها ، بل كذلك بتدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية .

.. اذن يجب على الأزهر أن يكون معهدا تقدميا يسابر العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية ، فبفضل هذا التطور يتحقق الصالح العام للعالم الاسلامى . فكان

أن ظهرت حركة تشابه تلك التي انتجت القسيس العامل خارج كنيسه للخدمة العامة عند الكاثوليك . والان نرى الهندسة وبقية العلوم تدرس لطلبة الازهر ، كما سمح للبنات بالالتحاق به ، وهو امر لم يكن يتصوره احد حتى في الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر

وفي سنة ١٩٦٤ أعلنت خطوة جديدة جذرية وهي مشروع اقامة جامعة جديدة للازهر على مساحة ٥٠٠ فدان في مدينة نصر ، وهي ضاحية سريعة النمو لها ادارتها الذاتية وتقع شمال العباسية ، كما ستخصص ١٥٠ فدانا أخرى في القبة لانشاء كلية اسلامية للبنات تابعة للازهر

ان تطور الازهر وهو يضم ٤٠ ألف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا انما هو - من أحد الجوانب - نتيجة تحد من نظام تعليمي آخر في مصر ، نظام علماني صرف ، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة ، ويدرسون وفقا لمنهج سلفي لم يتبدل الا قليلا منذ القرون الوسطى ، تدفق سيل آخر يرتدى الملابس الاوروبية ويدرس علوم الذرة والاقتصاد السياسي ، ولم يكن بين التيادين الا اتصال قليل او قل لم يكن بينهما اتصال على الاطلاق

وترجع هذه الثنائية في نظام التعليم الى المدارس العسكرية التي انشأها محمد علي ، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر ، منذ انشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ الى اقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧ ، وامداد هذه المعاهد العليا بالطلبة يستند الى نظام تعليمي بين

ابتدائي وثانوي .. هو الآن اجباري وبالمجان . ونسبة الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين اتموا الدراسة الثانوية هي اكبر من مثلتها في بريطانيا اليوم ، ولكن هذا لايعنى ان المستوى يرتفع الى نفس الدرجة ابدا ، ولكن احصاءات التعليم من سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ توضح مدى انتشاره فمثلا بلغ عدد الطلبة في المدارس ٦٠٨ ألف طالب منهم ٢٦٢ ألفا من الطالبات ، ويبلغ مجموع عدد الطلبة المتحقين بالدراسات الجامعية دون الدراسات العليا في جامعتين في القاهرة من أربع جامعات ( جامعة القاهرة التى حل اسمها محل جامعة فؤاد ، وجامعة عين شمس ) ٧٢٩١٣ طالبا منهم ١٦ ألف طالبة او اكثر قليلا ، وهذه الارقام وان بينت ان النساء لم يأخذن قسطهن في مجال التعليم كاملا ، الا انه يبين في نفس الوقت سرعة انتشار تعليم البنات . وكل النساء اللاتي يقمن بدورهن المتزايد الفعال في الحياة المصرية خريجات هذه الجامعات ، وخير مثل منهن هي حكمت أبوزيد الوزيرة ( السابقة ) للشئون الاجتماعية التى كان من أعبائها ان تنشئ ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل في جميع أنحاء الجمهورية

ولان القاهرة ترى نفسها مركزا تعليميا لافريقية ، فانها - فضلا عن منح عشرات الالوف من الشسبان والشابات الافريقيين منحا دراسية في معاهدها - تستغل قوة الاذاعة التعليمية فتذيع من محطة الاذاعة المصرية « برنامج صوت افريقية » يوميا باللغات الامهرية والسواحلية ، واللنجالا والسيسوتو ، والنيانجا ، والصومالية ، والفولانية ، والهوسا ، واخيرا باللغتين الانجليزية والفرنسية لمن لم تكن لفته احدى هذه اللغات

## الفصل الرابع عشر

### القاهرة .. والفراعنة

يمكن أن يعتبر هذا الفصل القصير سلبيا ، فليست القاهرة فرعونية في شيء ولكنها تحوى المتحف المصرى فى ميدان التحرير ، ويضم أفخر مجموعة من الاثار المصرية فى العالم . ويمكنك فى مقابل قرشين التجول فى أكثر من مائة غرفة فيه تضم بقايا مدنية ابتدأت منذ عرف الانسان معيشة المدن . ويمر سيل لاينقطع من الزوار من كل أنحاء العالم أمام أثار توت عنخ آمون المتين أو يواجه موميات رمسيس الثانى وسيتى الاول ( وكانت الموميات فى عهد فاروق محجوزة عن أعين السواح ، فقد اعتبر هذا الملك هؤلاء الفراعنة ملوكا سابقين يجب أن تضى عليهم جلالة الملوك ، أما الجمهورية الديمقراطية فقد سمحت - نظير رسم قدره ٢٥ قرشا - بدخول القاعة رقم ٥٢ حيث تعرض الموميات حاليا ) . ويفخر القاهريون بمتحفهم ويعتقدون أنه السبب الرئيسى لحضور ٤٠٠.٠٠٠ زائر سنويا للبلاد . ولكن الاسماء التى أشرفت على هذا المتحف ليست مصرية فقد انشاه أوجست ماريت الفرنسى وصمم مبانيه مارسيل بورجنون عالم المصريات ، والدراسات التى بدأت بأوربيين أمثال شامبليون وماريت لم تشمل المصريين بأعداد كبيرة الا أخيرا ..



واذا كانت القاهرة مدينة اسلامية وليست فرعونية ، فانها فى نفس الوقت مركز باهر للدراسات الفرعونية . وترجع جاذبيتها العظمى فى هذا المجال - حتى للسائح الخالى البال - الى قربها من الجيزة وسقارة . وهناك عرض بالصوت والضوء عند الاهرام يقام كل ليلة يسترجع الالف السنين التى سبقت البطالسة . ويستقبل ابوالهول - وقد تجلى بعد ازالة الرمال من حوله - اشعة الشمس كل صباح على جبينه وهو يحدق بلا مبالاة ناحية المدينة ، ويمكنك ان تشاهد - وانت واقف على جبل المقطم عند الضاحية الجديدة - سلسلة من الاهرامات تمتد جنوبا حتى نهاية البصر . واذا وصلت الى محطة القاهرة قادما من الاسكندرية او بورسعيد فستشاهد خارجها تمثالا ضخما لرمسيس الثانى - الذى اكتشف قريبا فى سقارة - واقفا وحيدا مديدا تخرج من اقدامه نافورات من المياه

ولكن التأثير الواضح للفراغة على القاهرة هو محاكاة لتصميماتهم ونقوشهم تزين بها قاعات المطاعم او ترسم على بعض الاقمشة

ولعلى اكون مخطئا فى ذلك . فهناك تأثير ايجابى فرعونى واضح ، ذلك ان الشباب يضعن الكحل حول عيونهن التى هى واسعة اصلا . كما انهن - بحيلة فنية - يتوصلن الى ارسال شعورهن السوداء على نمط شعر نوفرت الجالسة على الدوام بجوار زوجها الامير رع حتب فى الغرفة رقم ٣٢ بالدور الارضى فى المتحف .

# فهرس

## صفحة

هذا الكتاب ... ..	٧
مقدمة : القاهرة الكبرى للدكتور جمال حمدان ... ..	١٢
القاهرة ٠٠ بنت الصحراء ... ..	٨٢
القاهرة ٠٠ بنت النيل ... ..	٨٧
القاهرة ٠٠ أم الالوان العديدة ... ..	٩٣
القاهرة ٠٠ الطابع البلدى ... ..	٩٧
القاهرة ٠٠ الطابع الافرنجى ... ..	١٠٥
القاهرة ٠٠ والارستقراطية ... ..	١١١
القاهرة ٠٠ الطابع النوبى ... ..	١١٣
القاهرة ٠٠ منازل الاموات ... ..	١١٥
القاهرة ٠٠ ظلال من مقدونيا ... ..	١١٨
القاهرة ٠٠ طابع الاجانب ... ..	١٢٩
القاهرة ٠٠ الطابع الاسلامى ... ..	١٣٤
القاهرة ٠٠ والامسيات ... ..	١٥٦
العلم والتعليم ... ..	١٧١
القاهرة والفراغة ... ..	١٧٦

**وكلاء اشتراكات مجلات دار الفنون**

**THE ARABIC PUBLICATIONS  
DISTRIBUTION BUREAU  
7, Bishopsthorpe Road  
London S.E. 26  
ENGLAND.**

انجلترا :

**M. Miguel Maccul Cury,  
B. 25 de Marac, 994  
Caixa Postal 7406,  
Sao Paulo. BRASIL.**

البرازيل :



## هذا الكتاب

هذا الكتاب نموذج شائق وطريف لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الاجانب هواة المدن الذين يحاولون بذكاء أن يستقظروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية . ان المؤلف لا يقدم للقارئ - في صورة مختصرة - معلومات كثيرة استقها من المراجع ، وانما يحكى بأسلوب أدبي ما أحس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض أحاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية .. انه رأى الألوان وأطراف الألوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والاسطح والجدران واكوام القمامة . فالكتاب اذن - كما يقول الدكتور جمال حمدان الذي قدم للكتاب بحث قيم ممتع بعنوان « القاهرة الكبرى دراسة جغرافية المدن » - الكتاب قصة رحلة في الزمان والمكان وعرضها زيارة ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك وممتعة ذلك . وأحياناً يكون الكاتب الاجنبى أقدر من ابن البلد ليس مثله ضحية الالفة والعادة . وسيجد « ابن القاهرة » أشياء كان يقع عليها بصره من قبل ولا ينتبه اليها ..

١٠ فروش

Bibliotheca Alexandrina



0494085

